وأعيقت الامبراطورة ايزابل وسط هذه الاستعدادات بطفل، وولدت في ٢٥ ــ نيسان ١٢٢٨ في أندريا بصبي ذكر منح اسم كونراد،وكانت معاناة الولادة قاسية جداً بالنسبة للامبراطورة ابنة السابعة عشرة، ولقد توفيت بعد عشرة أيام من ولادتها، تاركة كونراد وريثاً لعرشها في القدس، وهكذا انتزع اللقب من فردريك ، قبل أن يشرع بسفره نحو مملكته في القدس، وعندما أقلع أخيراً في ٢٨ حزيران، كان ادعاءه القانوني الوحيد بعرش المملكة الشرقية متمثلاً بوضعه كوكيل لابنه الرضيع، وزيادة على هذا لقد أبحر على الرغم من الحظر البابوي، الذي منع تحت التهديد بالحرمان الكنسي وعدم المصالحة مع الكنيسة، إذا ما قام بالحملة الصليبية.

## ب ـ *الحملة الصليبية: حزيران ١٢٢٨ ـ أيار١٢٢٩* .

عندما أبحر الامبراطور، وهو في لجة الحظر البابوي، من برنديزي في ١٢٢٨ ، وشرع بحملته الصليبية التي تأخرت كثيراً، كانت قوته صغيرة، تألفت من أربعين مركباً فقط، فقد كان الجزء الأعظم من جيشه قد تقدم أمامه، لكن وإن أخذنا ذلك بعين التقدير كانت الحملة الصليبية الامبراطورية أقل عظمة مما خطط له بالأصل، وبعد ابحار دام أربعة وعشرين يوماً،اجتاز فيها الأسطول الامبراطوري سواحل كورفو، وسيفالونيا، والمورة، و كريت، وصل يوم ٢١ تموز إلى ميناء ليماسول في قبرص، حيث التقى بتوماس أوف أسيرا وفيلنغر ، وبالين صاحب صيدا، وبعض من أعيان نبلاء المملكة ، وكان يحكم مملكة قبرص آنذاك الملك هنري الأول، وكان صغيراً، وقد ناب عنه جون دي إيبلين صاحب بيروت، حيث كان يعمل وكيلاً يتولى إدارة المملكة، وكان فردريك يعدّ قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧، وكان قد اعترف بالتابعية للامبراطورية، ولهذا قرر فردريك الضغط من أجل حقه

بالسيادة على الجزيرة، وقد شجعه على ذلك: عموري برلياس ومجموعة من البارونات المضادين للايبلينيين ، الذين كانوا قد خرجوا لاستقبال الامبراطور قرب المورة، وقد بينوا له القيمة في الرجال، والمال، والامدادات التي سيؤمنها تملكه لقبرص لحملاته في القارة، وكانت القضية القائمة قضية قانونية، لأنه بموجب القانون الإمبراطوري كان يحق لفردريك بحكم سيادته، توجيه الملك الصغير وريث المملكة لأنه كان تابعاً امبراطورياً، لكن بموجب قانون قبرص كانت نيابة الملك بيد أليس أم هنري، وهي أقرب أقرباء الملك الطفل، وكانت المحكمة العليا لقبرص قد عينت فيليب دي ايبلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس، أثناء قصور وريثها، وعندما تولى فيليب مسؤوليات حكم المملكة، قام البارونات بناء عليه بتأدية يمين الطاعة لحكمه حتى يصل هنري الى السن الشرعي، وطالما أن الملكة أليس كانت تتلقى موارد المملكة، فالحكومة مسندة إلى الإيبليني، ولعله بسبب الخوف من الامبراطور بادعاء حق الإشراف على توجيه الملك القاصر، قام الايبليني في سنة ١٢٢٥ بتتويج هنري، وكان هذا عندما سرت أخبار خطط الحملة الصليبية الامبراطورية في قبرص، وتوفي فيليب دي ايبلين في عام ١٢٢٧، وانتقلت إدارة المملكة على الفور ـ بموافقة من المحكمة العليا ـ إلى أخيه جون صاحب بيروت ، وأدى النزاع فيما بين الايبلينيين وبرلياس إلى قيام حزب معارض قوي للإيبلينيين، بعدما حاول برلياس تأمين وكالة الملك من خلال الملكة أليس، التي رفضت محاولتها وأحبطت من قبل المحكمة، وكان الحزب المعارض يأمل بأن الإمبراطور سوف يؤكد حقوقه، وينتزع من الإيبلينيين الوكالة لنفسه.

و عندما طلب فردريك من الإيبليني أن يسلمه الملك و حكومة المملكة، استجاب صاحب بيروت إلى المطالب الامبراطورية فيما يتعلق بالملك، معترفاً بسيادة الامبراطور على الملك، لكنه رفض الاستجابة فيما

يتعلق بـالوكالـة، التي استحوذ عليها بمـوجب سلطات المحكمـة العليا، التي هو مسؤول أمـامها فقط، فالملكة أليس قد كانـت نائبة الملك، و لها حق التمتع بالموارد، و هو ـ أي الإيبليني ــ له حق الحكومة فقط ، الذي منح إليه مـن قبل المحكمة، و هو على استعداد لتقديـم حساب لمحكمة نيقوسيـا حول جميع ما قـام به، و قام فـردريك عن عمد بتعقيـدالقضية، بأن طلـب بالإضـافة إلى ماتقـدم تسليمه مدينـة بيروت، بحكم أنـه كان ملكاً للقدس و الإيبليني متملك لها كإقطـاعية من إقطاعيات القدس، ومن الضروري من أجل تـوضيح الأمور، أن نميز بعناية مسـألة العلاقتين اللتـان قامتـا بين فـردريك و الإيبليني : فبما أن فـردريـك كان يمتلـك السيـادة على ملـك قبرص، فقـد كـان بـإمكـانـه أن يطلـب الـولاء مـن الإيبليني لأنه كان مـن الاقطاعيين القبارصه، و هذا ماقـدمه له الإيبليني عن طـواعية، لكـن فردريـك ادعى النيابـة عن الملـك هنري، التـي هي بموجـب القانـون القبرصي كانت تعـود إلى الملكة أليـس، و قد أصرعلى الاعتراف بحقوقه كنائب، الأمر الذي رفض الإيبليني الاعتراف به، و لقد رأى فردريـك أن حكم الإيبليني قـد توقف بـالضرورة عندما وصـل هو، لأنـه هو النـائب القـانـوني،و طالـب بـالإعتراف بحقـوقه، و بـات مـن المتوجـب على الإيبليني تقـديم حسـاب له عـن السنوات التـي أمضاهـا بالوكالة، و من جهة ثانيـة عدّ نفسه الوكيل الإداري للملكة أليس، التي هـي النـائب الشرعي، وهـو مسـؤول أمـام المحكمـة العليا التـي منحتـه السلطات حتـى بلوغ الملك السـن القانونيـة، و بالمحصلة كـان هو على استعداد لأن يسلـم فردريك شخص الملـك الطفل القاصر، لأنـه امتلك حق السيادة عليـه، لكنه رفض تقديم أي حسـاب إلاّ إلى المحكمة العليا في نيقوسيـا، و كانـت العلاقـة الثانيـة بين فردريـك كملك للقـدس و الإيبليني كصـاحب لبيروت، و هنا أبـدى الإيبليني استعداده لتقـديم الولاء لفـردريك كملـك للقدس، و أن يخدمه مقـابل اقطـاعه في بيروت الذي هو مستحوذ عليـه منه، و طلب فردريك التسليم الفـوري للاقطاع

حيث ادعى أنه يعود إلى الأملاك الملكية، و كان الاقطاع قد جرى منحه إلى الإيبليني من قبل الملك عموري الثاني و الملكة ايزابل، و بموجب قوانين القدس كان التابع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة القسرية للملك، وواضح في القوانين تمام الوضوح أن التابع يمكن أن يحرم من إقطاعه فقط بموجب قرار من المحكمة العليا للقدس، و تعلقت المسألة هنا بجميع امتيازات الحقوق التي تمتع بها ملك القدس، و كان فردريك يحاول أن يفرض امتيازات و أن يمارس أموراً لم يسمع بها فيما وراء البحار، و كان الإيبليني مصراً على التمسك بحقوقه كإقطاعي حسبما هي مضمونة في شرعة المملكة، و على هذا كان الصراع أكبر منه صراعاً بين فردريك و بين صاحب بيروت، فلقد كان صراعاً أساسياً بين نظامين متعارضين: أولهما من جانب القانون الروماني و الامتيازات، ومن الجانب المقابل القانون الاقطاعي مع حقوق الأفراد، و كانت قوانين الدول الصليبية قد تأسست في القرن الثاني عشر على قواعد إقطاعية صرفه، و كانت الحقوق الفردية في جميع الأحوال محمية، و لم تعرف قوانين القدس أي شيء حول الامتيازات، و لم تكن فيها مجموعات القوانين الرومانية أو مؤثراتها، فلقد كان بإمكان فردريك الثاني أن يكون صاحب صقلية بلامنازع و الامبراطور الشرعي لألمانيا، غير أنه كان في القدس ملكاً اقطاعياً، خاضعاً للقانون، وغير قادر على فعل أي شيء بدون موافقة المحكمة العليا، التي كانت مكونة من إقطاعيي المملكة، والتي امتلكت السيادة في جميع الأشياء.

ولقد روى فيليب دي نوفار أفضل تفاصيل أخبار هذا الصراع، وأعطى الإيبليني رهائن مقابل ظهوره في كل من محكمتي قبرص والقدس، وتراجع إلى نيقوسيا، وعندما لحقه فردريك إلى هناك، رفض صاحب بيروت القتال ضد الرجل الذي كان مولاه، وانسحب متراجعاً إلى ديو دامور، متخليا بذلك عن نيقوسيا لأعدائه، ولو امتلك فردريك

المزيد من الوقت لأمكن القتال من أجل المسألة، ولوجدت حلاً كليا في صيف ١٢٢٨، لكنه تسلم رسالة أخبرته عن العصيان الذي كان البابا يثيره في إيطاليا ضده، وكان قلقاً لإكمال صليبيته ومن ثم العودة إلى الغرب، ونتيجة لهذا أبرمت معاهدة، وبموجبها جرى إعادة الرهائن الإيبلينية الى قلاع المملكة، وهم البينات البديهية للحكم، وتم تسليمهم إلى يدي إقطاعي تابع للملك هنري كان قد جرى اختياره من قبل الامبراطور، وقد احتفظ هذا بهم باسم الملك، ووعد الإيبليني بمرافقة فردريك في صليبيته، وغادر فردريك قبرص في الثالث من إيلول، بعدما أمضى ثلاثة وأربعين يوما في قبرص، وتوجه فردريك إلى سورية، وأخذ الملك هنري معه.

وبعدما أبحر مروراً بالبترون، وبيروت، وبصيدا وبصور، وصل الامبراطور إلى عكا، حيث جرى استقباله بحماس كبير من قبل السكان، مع أن رجال الدين رفضوا منحه قبلة السلام، حتى يتصالح مع الكنيسة، وعاشت هذه الصداقة مع السكان لمدة قصيرة فقط، فبعد أيام قليلة من وصول الاسطول الامبراطوري، وصل بعض الرهبان الفرنسيسكان إلى عكا وهم يحملون رسائل من البابا ضد فردريك، وهي تأمر جميع المسيحيين الطيبين بالابتعاد عنه وبتجنبه، بما أنه محروم كنسيا ولم يتب، وأرسل الامبراطور الكونت هنري صاحب مالطا ورئيس أساقفة باري إلى روما ليعرضا قضيته أمام البابا غريغوري، وليسعيا لضمان السلام حتى تتمكن الحملة الصليبية من المضي دونما إعاقة، غير أنهما وجدا البابا العجوز متصلباً في رفضه في قبول الاعتذار الامبراطوري.

وفي الوقت نفسه أعاد فردريك من عكا المباحثات مع السلطان الكامل، الذي كان معسكراً في نابلس، وكان توماس أوف أسيرا، وبالين صاحب صيدا هما الرسولان الامبراطوريان، وعاد الشيخ فخر الدين رسولاً من السلطان إلى الامبراطور، وكان فردريك راغباً بشدة في إتمام

التحالف على أساس الشروط التي تقدم بها الكامل في ١٢٢٦، لكن السلطان لم تكن لديه الرغبة الآن في تقديم التنازلات الكبيرة، طالما أن المعظم كان الآن ميتاً، وقد زال الخطر من دمشق، لأنه بعد وفاة المعظم غزا السلطان المصري فلسطين واستولى لصالحه على القدس ونابلس، وبات أقل رغبة في إعطاء فردريك مدناً هي الآن في يده وليس كما كان من قبل— عندما تنازل عنهن— في أيدي منافسه، وكان قد تمكن في آب من عام ١٢٢٨ من نيل معاهدة من الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة، وأخوه أيضاً، اقتسما بموجبها ممتلكات الملك المعظم، وبذلك حرما كليا الملك الناصر داود، وهو ابن المعظم ووريثه، وعلى هذا كان وضع الكامل قد تمتن كثيراً، وباتت حاجته للتحالف مع فردريك ضئيلة، وكان فردريك من الجانب الآخر، بحاجة كبرى إلى السلطان، لأنه مع القوة الصغيرة التي كانت تحت تصرفه، لم يكن ليأمل بالاستيلاء على أي شيء بقوة السلاح، وكان عليه أن يعتمد على طيب نوايا السلطان نحوه، وعلى إمكانية تأمين أي شيء من خلال المفاوضات في سبيل الوفاء بالشروط التي جرى عرضها من قبل،وازداد وضع فردريك ضعفاً بمعرفة السلطان بالصراع فيما بين الامبراطور والبابا، ولإنعدام الوحدة داخل المعسكر المسيحي، وأكثر من هذا لقد كتب غريغوري مباشرة إلى السلطان يطلب منه أن لايقدم أية تنازلات إلى فردريك، لهذا كان ما تمكنت الحملة الصليبية من تحقيقه قد جاء بالدرجة الأولى محصلة للإحترام المتبادل الذي قام بين الامبراطور والسلطان، وبفضل الصداقة التي بذل فخر الدين جهوده في سبيل إقامتها، وتأسيسها فيما بين الحاكمين المتشابهين بالعقلية.

وانتقل الكامل من نابلس إلى غزة ولحقه فردريك باتجاه الجنوب، حيث زحف إلى يافا في تشرين الثاني لعام ١٢٢٨، ونتيجة لإصدار البطريرك جيرولد حرماناً كنسياً ضد الامبراطور، رفض مقدما الاسبتارية

والداوية الزحف تحت الراية الامبراطورية، لكنهما قاما بعمل تسوية، بأن زحفا على بعد مسيرة يوم واحد من جيش فردريك وأعلنا أنهما كانا لايخدمان في جيش الامبراطور بل في جيش المسيح، وشكل الجيش الصليبي وإن كان صغيراً شيئاً من الرعب بالنسبة للملك الكامل، وصحيح أن الصليبيين كان عددهم صغيراً بالفعل، ولايمكنهم تشكيل خطر حقيقي على مصر، لقد امتلكوا من القوة ما فيه الكفاية لأن يجعلوا السلطان غير قادر على تجاهلهم، وأيضاً غير قادر على متابعة حروبه في سورية حيث كان يتولى تقليص حجم ممتلكات الدمشقيين، وقد أمل الكامل— لبعض الوقت— بأن يعجز فردريك عن البقاء في فلسطين، وأنه سوف يرغم على العودة إلى الغرب دون أن يتمكن من إنجاز ما أراد إنجازه في إعادة الاستيلاء على القدس، وصحيح أنه قدر تقديراً صائباً رغبة الامبراطور في العودة إلى ايطاليا، هو لم يقم تقديراً كافياً لإصرار فردريك على ان يحمل معه بعض النتائج القيمة لحملته، حتى لايظهر بمظهر المخفق في أعين العالم المسيحي، وقد التجأ كل من فردريك وغريغوري إلى الرأي العام، وكان على فردريك العودة مع ثمار للنصر كيفما كان قد تم الحصول عليها، ونتيجة لهذا بينما سعى الكامل إلى إطالة أمد المفاوضات، تمسك فردريك بإصراره على تسليمه القدس والبلدات الفلسطينية الأخرى، وكان موقفه لبعض الوقت خطيراً، فقد أخرت العواصف الاسطول الذي كان يحمل الميرة، ولم يستطع الوصول إلى يافا لبعض الوقت الذي مضى بعد وصول الجيش، وعانى الناس من نقص الميرة والإمدادات، وأصبح الامبراطور يائساً، لكن الحظ ابتسم له أخيراً، فقد قام الملك الناصر داود— الأمير الدمشقي المخلوع— بغزو سورية بغية إعادة الاستيلاء على ممتلكات أبيه التي كان عماه يحاربان في سبيلها، وقد حوصر في دمشق من قبل الأشرف، وبات الآن هناك خطر يواجه الكامل فإما أن يتمكن الناصر داود من استرداد أراضيه ، أو أن يقرر الأشرف احتلال أكثر من حصته، وصار الآن على الكامل حتى

يحافظ على مكتسباته في سورية أن يبذل غاية جهده حتى يتحرر من الانشغال بالحملة الصليبية، وذلك لكي يتدخل بشكل فعال في الحرب السورية، ونتيجة لهذا كان فخر الدين قادراً على إعداد معاهدة تسلم بموجبها فردريك أكثر مما كان يتوقعه، ويمكنه ضمانة،، مما أعطاه القدرة على العودة إلى الوطن وهو جالب إليه« سلام مع مجد»، ويروى بأن الامبراطور قد قال لفخر الدين: «لولا أن أخاف من انكسار جاهي في عيون الفرنجة، ما كلفت السلطان شيئاً من ذلك»، في حين دافع الكامل عن المعاهدة بقوله: «إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الاسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»، وفي الوقت الذي انتقدت فيه المعاهدة من كلا الطرفين، توفرت لدى المسلمين أرضية أفضل للشكوى والنقد.

وكانت معاهدة يافا هذه التي أبرمت أخيراً في ١٨— شباط لعام ١٢٢٩ عبارة عن اتفاقية شخصية بين السلطان والامبراطور، وقد أعدت بشكل سري، فما من واحد من الأعيان السوريين استشير لدى إعدادها، وقد غضبوا حيال إبرامها، وقد رست تماماً واعتمدت على النوايا الطيبة لكل من السلطان والامبراطور من أجل فرضها وتطبيقها، وقد عقدت من أجل خاطر فردريك شخصياً، وليس لصالح مملكة القدس، أو الكنيسة المسيحية، فقد كانت هذه غاضبة حسبما مثلها رجال الدين، وكانت المواد الاساسية للمعاهدة كما يلي:

١— يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.

٢— تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحرية في ممارسة شعائرهم هناك دونما إعاقة.

٣— للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديانتهم.

٤— يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.

٥— يمتلك المسلمون محكمتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.

٦— وعد الامبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان، وأن لايساعد أحداً ضده.

٧— سوف يمنع الامبراطور أي واحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان، ويعيق أي إنسان قد يقترح فعل ذلك.

٨— تعهد الامبراطور شخصيًا بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للهدنة.

٩— تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع : صافيتا، والمرقب والكرك ( قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاسبتارية) كما هي، حسبما كانت ( أي هي غير مشمولة بالمعاهدة)، وينبغي على الامبراطور أن يمنع أي من رعاياه: من سوريين وآخرين، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان.

١٠— ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الامبراطور.

١١— ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الامبراطور.

١٢— ينبغي إعادة تبنين مع أراضيها وقراها.

١٣— ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.

١٤— ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.

١٥— يسمح بإعادة بناء أسوار القدس، ويافا، وقيسارية والقرين

(قلعة فرسان التيوتون) من قبل المسيحيين (ذكر المقريزي أن مدينة القدس لم تحصن).

١٦— لايسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.

١٧— سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حمله دمياط.

١٨— مدة الهدنة عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يوما.

ومع أن المعاهدة قد حققت لفرنجة سورية أكثر مما حققته أية حملة صليبية أخرى منذ الحملة الأولى، ومع أنها لاقت القبول من قبل السواد الأعظم من الجيش الصليبي، ومن شعب البلاد، كانت غير مقبولة لدى البطريرك جيرولد مع رجال الدين، وانتقدت المعاهدة بتسويغ أعظم من قبل المسلمين، الذين شعروا بأن السلطان كان مسرفاً جداً بكرمه، ورفض الناصر داود بشكل خاص القبول بأداة تصرف بموجبها عمه وأعطى مدناً، شعر بأنها تعود إليه شرعاً، واستغلت هذه الحقيقة من البطريرك جيرولد، الذي ألح على رفض داود واتخذ منه حجة للمعارضة من الجانب المسيحي، كما وعارض البطريرك المعاهدة بشكل رئيسي لأنها سمحت للمسلمين بالعبادة في القدس، وجعلت الامبراطور يتعهد بعدم السماح لأي صليبي بغزو مصر، وهذه الفقرة رأها رجال الدين وعدّوها على أنها أكثر الفقرات لامسيحية.

ولم يؤثر رفض البطريرك والناصر داود لقبول المعاهدة أي شيء على الاطلاق، وذلك فيما يتعلق بفردريك والكامل، وكان الامبراطور الآن قلقاً جداً— أما والمعاهدة قد أبرمت— لكي ينهي أعماله ويعود إلى الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع

الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع المعاهدة— تتويجه لنفسه بشكل مهيب ملكاً على القدس، وكان ذلك في كنيسة الضريح المقدس، ورفض عدد كبير من البارونات إتباع الامبراطور إلى القدس، وكان ذلك بناء على أوامر من البطريرك، وعادوا إلى عكا، مع أن الصليبيين من الغرب، وفرسان التيوتون وعدد كبير من البارونات المحليين قد رافقوه، وبما أن الامبراطور كان ما يزال محروماً فقد جرى احتفال التتويج بدون موافقة البابوية، مع أن رئيس أساقفة كابوCapua وبالرمو وكذلك عدد كبير من رجال الدين الأدنى مرتبة كانوا بين الحضور، ووضع وقتذاك تاج القدس فوق المذبح في الكنيسة، ومن على المذبح تناوله الامبراطور نفسه، ووضعه على رأسه، ثم تكلم فون سالزا باسم الامبراطور، وتوجه إلى الشعب مؤكداً له أن رغبته العظيمة هي التصالح مع البابا وإقامة سلام معه، وسوغ مواقفه بالنسبة للتهم التي صدرت ضده.

ثم مالبث الاحتفال أن تحول إلى حزن، فبعد التتويج بأمد وجيز قام رئيس أساقفة قيسارية، بناء على أوامر من البطريرك، فوضع الكنيسة والأماكن المقدسة في المدينة تحت الحرمان، وكانت هذه بالحقيقة ضربة مؤلمة للحجاج الذين ارتحلوا إلى المدينة المقدسة، فهم قد حرموا الآن من المنافع الروحية التي توفرت هناك، لابل أكثر من هذا، لقد باتوا عرضة للعقوبة لوجودهم هناك، وبعد ما قام فردريك بكل سرعة ببعض الترتيبات الدفاعية عن المدينة المحرومة، انسحب منها، وزحف عائداً إلى يافا، ثم قام في ٢٥— آذار، أي بعد اسبوع واحد تماما مضى على تتويجه بالعودة إلى عكا.

وأمضى الامبراطور شهر نيسان في عكا، حيث كان لديه عدداً من القضايا عليه ايجاد حل لها قبل أن يغادر البلاد، وتصدر هذه القضايا من

حيث الأهمية ما كان ضد البطريرك وضد الداوية، الذين اتهمهم بأنهم حاولوا قتله بوساطة كمين نصبوه له بناء على طلب من البابا، وقد حاصر لمدة خمسة أيام البطريرك والداوية في بيوتهم في عكا، حيث نصب آلات الحرب، وقاد عمليات حصار نظامية ضدهم، ورد البطريرك على هذا بفرض حرمان لاهوتي على الذين تولوا مساعدة الامبراطور، ووقفوا ضده وضد الداوية، وبشر الرهبان بمضمون هذا المرسوم، وعليهم نزل غضب الامبراطور، الذي أمر بجرهم من فوق منابرهم، وضربهم في شوارع المدينة، مثل اللصوص العموميين، وقام الامبراطور بالوقت نفسه بربط الفرسان التيوتون والبيازنة به أكثر، وجعلهم متعلقين به شخصيا عن طريق عدد من مراسيم المنح الكريمة التي صدرت في عكا في نيسان عام ١٢٢٩، وباع بالوقت نفسه وكالة قبرص إلى عموري برلياس ومعه رفاقه الأربعة، وعين بالين صاحب صيدا، وغارنيير الألماني وكيلين له في سورية، وقد أنهى ترتيباته بكل سرعة، ذلك أنه كان قلقا جداً ومتعجلاً للعودة إلى إيطاليا، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة جون دي بريين يقوم بغزو أبوليا وكابوا، وأقلع الامبراطور يريد الوطن في الاول من أيار، على ظهر اسطول، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبه للتو من الغرب.

وتركت مغادرة فردريك لعكا الأوضاع في سورية والمشاكل فيها دونما حلول، حيث مابرح البطريرك مع رجال الدين يرفضون القبول بمعاهدته مع مصر، وكان الداوية معادين للامبراطور بشكل علني، ولم تعرض قضية الايبليني للمحاكمة في المحكمة العليا، وهكذا بقيت دونما حسم، وكان وكلاء فردريك في قبرص يسعون جاهدين من أجل تدمير ثروة الإيبلينيين وقوتهم في الجزيرة، وكانت الحملة الصليبية قد انتهت، لكن مؤثراتها على الدول اللاتينية لما وراء البحار لم يكن الشعور بها قد بدأ تماما.

## ج— الحرب الامبراطورية الايبلينية حتى طرد الإمبراطوريين من قبرص، ١٢٢٩ — ١٢٣٣.

كان الزمان الـذي جاء مباشرة إثر عودة فردريـك من الحملة الصليبية مـوائماً جداً لسعـد الامبراطـور ولصالـح قضيتـه، فقـد تمكن في الغـرب بنجاح مـن طرد الجيـوش البابـوية من المملكـة الايطاليـة، ومن ثـم نقل الحرب إلى داخل الـدول البابويـة، وفي تلك الأثنـاء تمكن بالين صـاحب صيـدا، الذي كـان وكيلـه، من إحبـاط محاولة قـام بها بعـض البداة مـن المسلمين لـلاستيـلاء على القدس، وضمـن القبـول بمعـاهـدة يافـا مـن سلطان دمشق، وجـرت مصادرة ممتلكات الداويـة في صقلية، وأرغموا في الشرق على التخلي عن مطـالبهم نحوصيـدا وصور، وكـان الحزب المعادي للإمبراطور قد اتخذ وضع الهجوم بعـد وقت قصير من مغادرة الامبراطور، لكـن محاولته لخلـع الامبراطـور من عـرش القـدس قـد أخفقت، وأعلـن بـارونـات المحكمـة العليـا عـن أنفسهـم أنهم تـابعين للملـك كـونـراد ولفردريك والـده، وتركزت المحاولـة حول شخصية أليس صـاحبة قبرص التي كانـت ابنة ايزابل صـاحبة القدس وهنري دي شـامبين، فقد مثلت أمام المحكمة تطالب بعرش القـدس، على أساس أنها أقرب أقرباء الملكة ايزابل المتوفاة، وقد أقرت بـأن كونراد كان ملكاً شرعياً، لكنها أصرت على أنه لم يـأت للمطالبة بميراثه في مـدة سنة ويوم بعـد تسلمه لهذا الميراث، وعلى هذا لقـد فقد جميع حقـوقه بـه، وعليه انتقل الميراث إليهـا،ولم ينكر البارونات بأن القـوانين تتطلب وجوب قدوم كونراد إلى سـورية للمطالبة بعرشـه، لكنهم رفضوا القبـول بادعاءات أليس، وعـوضاً عن ذلـك بعثوا بسفارة إلى فردريك تتألـف من جون بيليول Bailleul، وغيوفري لى تور، للطلب بـوجوب قـدوم كونـراد إلى عكا في أقـرب وقت ممكـن، وغادرت السفارة عكا مع نهاية عام ١٢٢٩، ووصلت إلى فردريك في فوغيا Fog-gia في أيـار لعـام ١٢٣٠، ووعد الامبراطـور السفـارة بـدون لبس بـأنـه

سوف يرسل كونراد في أقرب وقت ممكن ،لكن فوق ذلك لم تحصل منه على أي شيء، وتابع في الوقت نفسه وكلاء الامبراطور حكمهم للمملكة، وعلى العموم زادت حكمتهم في إدارتهم من شعبية الحكومة الامبراطورية.

لكن إذا كان الوكلاء الامبراطوريون قد حكموا بعقلانية ، ونالوا الشعبية في سورية، على عكسهم تماما كان حكم البارونات الخمسة الذين ضمنوا الوكالة في قبرص من الامبراطور، ففي مسعاهم لتأمين المبالغ الضرورية لدفعها ثمناً لوكالتهم، فرضوا ضرائب ثقيلة على البلاد كلها، وسلبوا بشكل خاص ممتلكات الإيبلينيين وأصدقائهم، حيث أملوا بإبعادهم نهائياً عن قبرص، وحدث في حزيران ١٢٢٩، أن جون صاحب بيروت عاد من سورية إلى قبرص، وأثار البلاد ضد الوكلاء، وحدثت معركة قرب نيقوسيا في ١٤— تموز، هزم فيها الإيبليني مع مؤيديه برلياس ورفاقه، وأرغمهم على الالتجاء إلى القلاع الشمالية: في ديودامور، وكنتارا، وسيرينا، وبعد أمد وجيز استولى الايبليني على كنتارا وسيرينا، ثم ألقى الحصار على الوكلاء في ديودامور، ومن تموز ١٢٢٩ حتى ما بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، أبقى صاحب بيروت وأولاده الوكلاء تحت الحصار هناك، وأخيراً استسلموا وتخلوا عن شخص الملك هنري وعن القلاع، وتنازلوا عن كل ادعاء لهم بالوكالة، وهذه الحرب هي التي حدثنا عنها فيليب دي نوفار بالتفصيل، وهي التي فيها تناول بالهجاء رينارد.

وفي الوقت نفسه تابع فردريك بنجاح حملاته ضد الجيوش البابوية إلى حد أن الكرسي المقدس بات جاهزاً للسلام، ووصل الصراع إلى النهاية في تموز ١٢٣٠، بسلام سان جرمانو، وهدأت المشاكل الإيطالية، وجرى استقبال فردريك ثانية في الكنيسة بمثابة « الابن العزيز في المسيح»، وذلك من قبل البابا العجوز، وألغي الحرمان الكنسي، وصدرت الاوامر

إلى بطريرك القدس بسحب الحظر الذي فرضه، وأن يقبل معاهدة يافا، وفي الوقت الذي أضعف فيه هذا السحب للتأييد البابوي الحزب المضاد للامبراطور كثيراً جداً،لكنه لم ينه مقاومته ولم يحطمها، وتابع البطريرك والداوية مع الإيبلينيين مقاومتهم للوكلاء الامبراطوريين، وفي شباط عام ١٢٣١، كتب البابا إلى الداوية يطلب منهم الخضوع، لأن الامبراطور قد تشكى ضدهم في أنهم يقاومون أوامر وكلائه، ويثيرون الحرب ضد شروط الهدنة مع مصر، وأعدّ الامبراطور في الوقت نفسه حملة لإرسالها إلى سورية، حتى تقيم حكمه هناك في البلاد بشكل راسخ، ولتتولى القضاء على العصيان، وأمر وكلاءه بمصادرة أراضي القادة : جون صاحب بيروت، وولدي أخيه صاحبي: يافا وقيسارية، وصاحب طبرية .

ووضع الجيش الذي أرسله الامبراطور إلى سورية تحت إمرة رتشارد فيلنغر، الذي كان المارشال الامبراطوري،وقد أرسل على دفعتين، وتألفت الدفعة الأولى من ثمان عشرة سفينة تحت إمرة أسقف ملفي Melfi، وقد وصلت إلى رأس غافاتا Gavata قرب ليماسول في أيلول ١٢٣١، وكان الملك هنري في كيتي Kiti(تشيتي Chiti قرب لارنكا) مع صاحب بيروت، وإليه إلى هناك جاء أسقف ملفي، وهو جون دي بيليول، الذي كان سفير المحكمة العليا إلى فردريك، وكذلك أيمون الألماني حفيد الوكيل غارنيير الألماني، وقد طلبا باسم الامبراطور من الملك هنري أن يقوم بطرد جون دي إيبلين من مملكته ومعه أقاربه، وعلى هذا رد الملك بلسان وليم فيزكونت بأنه لا يستطيع طرد الإيبليني لأنه تابعه، وهو على هذا يستحق حمايته، أما فيما يتعلق بأقاربه، فإنه ـ أي الملك هنري ـ حفيد للإيبليني، وبالتالي لايمكنه نفي جميع الإيبلينيين من ممالكه، ومع هذا الرفض غادر السفيران الامبراطوريان، وبما أنهما كانا غير قادرين على إرساء أسطولهما في قبرص، لوجود قوة كبيرة جداً كان قد حشدها هناك صاحب بيروت، وعسكر بها عند ليماسول، فقد أبحرا

باتجاه بيروت، حيث استوليا على البلدة وشرعا في حصار القلعة، وعندما وصل فيلنغر مع الخمس عشرة سفينة المتبقية من الأسطول، اتجه مباشرة إلى بيروت، ووقعت القلعة الآن تحت الحصار الشديد، ثم إنه ترك شطراً من قواته تحت قيادة أخيه لوثير لمتابعة حصار قلعة بيروت، وتوجه هو إلى صور، التي استسلمت له، ثم ترك أخاه الآخر واسمه هنري، مسؤولاً عن القيادة هناك، ثم تابع زحفه إلى عكا، حيث تولى جمع المحكمة العليا، وقدم مراسيم من الامبراطور تعينه بموجبها وكيلاً على جميع مملكة القدس .

وتم قبول مراسيم اعتماد فيلنغر وتعيينه من قبل بارونات المحكمة العليا من دون سؤال،وبدأ المارشال حكمه في القدس بالالتفات نحو موضوع استسلام بيروت، وكانت هذه حركة سيئة الفأل، لأن الاستيلاء على بيروت كان معناه إلغاء لأحكام القانون الأكثر رعاية، أي قانون القدس حيث قضى أن لايعد إقطاع التابع غير شرعي إلا بموجب قرار المحكمة العليا، ولايجوز لإرادة سيد واحد إعلان اتخاذ مثل هذا الإجراء، وعندما بات واضحاً للبارونات أن فيلنغر ليست لديه نية في عرض القضية عليهم، أدركوا على الفور مدى المخاطر على حرياتهم التي سوف يمثلها حكم الوكيل، وكان بالين صاحب صيدا، وهو الوكيل السالف، وقائد الحزب الامبراطوري في سورية، وهو المتحدث باسم البارونات في الطلب من المارشال إخضاع القضية لقرار المحكمة، والالتزام بقوانين البلاد، وطلب فيلنغر إعطاءه الوقت ليتشاور مع القادة الآخرين من حزبه الذين كانوا في بيروت، وعاد إلى الحصار، وأرسلت إليه وفادة إلى هناك، وذلك حسبما طلب، وذلك حتى يسلم جوابه على مطالب البارونات، لكن المارشال رفض التخلي عن أي مطلب، مدعياً أنه كان يطيع أوامر الامبراطور، واقترح أنهم إذا أرادوا عرض قضيتهم واستئنافها يتوجب عليهم إرسال ممثلين عنهم إلى الامبراطور نفسه، وهو

بلطفه لاشك سوف يعطيهم العدل، ومن أجل حمل هذه الدعوى ذهب بالين صاحب صيدا،ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني في شتاء عام ١٢٣١ إلى إيطاليا حيث كانوا جميعاً حضوراً في كانون الأول يشهدون إصدار فردريك لمرسوم في رافينا .

وكان جون دي إيبلين في الوقت نفسه يحشد القوات للتفريج عن القلعة المحاصرة، وضمان عون ملك قبرص، وقد بدل هذا سمة الحرب إلى حد ما، لأن دخول مملكة قبرص غيّر ما كان ثورة بارونات في صراع شبه محلي، وقام بارونات عكا وسكانها، وقد تحرروا من التأثير المعيق لكل من بالين ويودس، ونظموا أنفسهم داخل «كيمونة متعاهدة» وقد منحوا مقدميتها لجون دي إيبلين، وعهدوا بأنفسهم بالوقوف إلى جانبه، وفي كانون ثاني ١٢٣١، اجتمع جيش الإيبليني مع جيش القبارصة في فياغوستا، وعبروا في الربيع التالي إلى سورية للتفريج عن بيروت، ونزلت القوات في ميناء القسطلان قرب في طرابلس ومن ثم زحفت باتجاه الجنوب، وتخلى برلياس وأعوانه عن الجانب الامبراطوري، وبادروا مسرعين لتقوية القوات التي كانت في بيروت وكانت تتولى حصار القلعة، وزحف الإيبليني والملك هنري على بيروت، واتخذا مكاناً لهما خارج المدينة، حيث أرسلا من هناك المساعدة إلى الذين كانوا في داخل القلعة،وعندما بات الإيبليني قانعاً بأن القلعة تلقت ما يكفيها من نجدات، وليس هناك من خطر مباشر عليها يهددها بالسقوط، قام بتقسيم قواته إلى قسمين، فأرسل قسماً تحت قيادة ابنه الأكبر بالين إلى طرابلس في محاولة مخفقة لكسب أمير طرابلس ــ أنطاكية إلى جانبهم، بينما قاد هو نفسه المتبقي من الجيش وذهب إلى عكا، وتلقى هناك في نيسان ١٢٣١ قسم«الكومونة»، واستولى على الأسطول الامبراطوري الذي كان راسياً في الميناء، واستهدف فيلنغر في الوقت نفسه إحداث البلبلة بإرسال بر لياس وبعضاً من رجاله إلى قبرص، حيث عاثوا فساداً في

البلاد التي تركها الإيبليني بدون حماية، واستولوا على قلاع الجزيرة، وفقط قلعتا: ديودامور وبوفافينتو Buffavento صمدتا ضدهم، ولكي يقوم بعمل انتقامي خطط الإيبليني لمهاجمة القاعدة الإمبراطورية في صور، وهكذا اضطر فيلنغر مرغماً لسحب قواته من حصار بيروت وذلك بغية تحصين المدينة، وزحف القبارصة شمالاً من عكا حتى قلعة ايمبرت، حيث حدث بعض التأخير سببه بطريرك أنطاكية ، الذي اجتذب الإيبليني للعودة إلى عكا، مع وعود بالمصالحة حيث ادعى بأنه يمتلك السلطة لتأمين ذلك وبحثه، وترك القبارصة معسكرهم نهباً للفوضى،وفوجئوا وهم على حين غرة حينما تعرضوا ليلة ٣ ـ ٤ مايس إلى هجوم مفاجيء جاء من صور، وهرب القبارصة بشكل سيء جداً، ونجا الملك هنري بعدما أصيب بالرعب، وتشتت معظم الفرسان في المنطقة المحيطة، وتشجع فيلنغر بهذا النصر والنجاح في المعركة، وبعث على الفور بقواته الرئيسية إلى قبرص لانجاز احتلال الجزيرة بالكامل .

وعندما سمع الإيبليني بالمعركة المأساوية، بادر بالتوجه إلى قلعة إيمبرت، حيث تولى جمع قواته الممزقة، وقام «بتراجع استراتيجي» إلى عكا، وأبرم هناك اتفاقاً مع الجنويين الذين زودوه ورجاله بالسفن، كما حصل القبارصة على مزيد من الإمدادات، فسلح رجاله للقيام بهجوم معاكس على قبرص، وعبر إلى هناك إلى فيماغوستا، وكان ذلك في نهاية مايس، واستولى على فيماغوستا على حين غرة، بوساطة هجوم مفاجيء، ثم سارع القبارصة بالزحف نحو نيقوسيا بحثاً عن الأعداء، الذين كانوا مشغولين بحصار ديودامور، وانتقم هناك أغريدية قبرص لأنفسهم ولهزيمة قلعة إيمبرت ، وأنزلوا هزيمة ساحقة برجال الحزب الامبراطوري وأرغموهم على الدخول إلى قلعة سيرينا، واحتاج إعادة احتلال الجزيرة من الإيبليني عدة أيام فقط، واستقبله السكان القبارصة مع رجاله استقبال المحررين، مع أن رجال الحزب الامبراطوري امتلكوا بعض

المتعاطفين في الجزيرة، وترك فيلنغر فيليب شنارت Chenart وولتر دي أكوفيفا Acquaviva مسؤولين عن القيادة في سيرينا التي كانت تحت الحصار الشديد من قبل القبارصة، وتوجه ينشد المساعدة في أرمينيا، وأنطاكية وطرابلس، ولم ينجح فيلنغر في ضمان النجدات، وخشي من أن تستهلك الحامية الكبيرة في سيرينا المؤن الموجودة في المدينة مما يسبب سقوطها السريع، لهذا انسحب ومعه برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وبعدما توقف في صور ليتفقد حاميته هناك، ذهب إلى أبوليا ليطلب العون من الامبراطور، وفي الوقت نفسه شدد القبارصة الحصار على سيرينا، التي قطعت الأمل من وصول أية نجدات، فاستسلمت وفق شروط مشرفة في ربيع سنة ١٢٣٣، ويشكل هذا التفريج عن بيروت وإعادة احتلال قبرص الحلقات الأساسية الثانية من الحوادث التي جاءت في تاريخ فيليب دي نوفار.

وفي الوقت الذي كان فيه فيلنغر يسعى بدون نجاح كبير، لضمان السيطرة الإمبراطورية على سورية بقوة السلاح وكذلك على قبرص، كان البابا يسعى لأن يزيل واحداً من أسباب التمزق على الأقل، ولم يتوقف، في الوقت نفسه، البطريرك جيرولد الذي كان بطريرك القدس، عن معارضة مطامح الامبراطور، ومع أنه لم يقم بأي عمل معلن في مقاومة وكيل الامبراطور، لقد قدم المساعدة المعنوية للحزب الإيبليني، واحتج فردريك بشكل جدي على هذا، وقام غريغوري الذي كان مايزال راغباً بشدة في الحفاظ على الصلح والسلام مع الامبراطور، بالكتابة إلى جيرولد يطلب منه تقديم الطاعة إلى الامبراطور التي هي واجبه، وأن يتوقف عن مساعدة الذين تمردوا عليه، لكن البطريرك لم يستجب تمام الاستجابة، وهكذا لم يتوصل الامبراطور إلى الشعور بالرضى، وبناء عليه كتب البابا ثانية في تموز إلى البطريرك جيرولد يأمره بالقدوم على الفور إلى روما، جالباً معه من يمثل كل من الداوية

والاسبتارية، حتى يمكنهم إيجاد حل للقضايا التي تثير الاضطراب في القدس،وعندما بدا جيرولد مترددأبشأن الذهاب، كتب غريغوري إليه من جديد في ٢٦ ــ تموز، حيث انتزع منه وظيفته كنائب للبابا ما لم يقدم إلى روما في العبور المقبل، وأضفي المنصب الشرعي في سورية على ألبيرت بطريرك أنطاكية الذي كان منحازاً لفردريك، وقد وجهت إلية التعليمات بالتشاور مع مقدمي منظمات الفرسان في سبيل استعادة السلام، وإعادة العصاة إلى حظيرة الطاعة .

وصحيح أن ألبيرت كان من قبل يسعى في سبيل إعادة السلام قبل معركة قصر إيمبرت، بدا الآن غير قادر على تأمين أي حل لقضية الساعة آنذاك، وهكذا باشر فردريك بنفسه العمل في سبيل الحل، فلقد اعتقد أن بإمكانه نيل رضا بارونات سورية بتقديمه لبعض التنازلات لهم فيما يتعلق بقضية الوكيل، وقد بعث برسائل على يد أسقف صيدا،مخولاً تعيين وكيل جديد في عكا، ورشح لهذاالمنصب واحداً اسمه فيليب دي مو غاستلMaugastel ، وكان صديقاً قريب الصلة من فيلنغر الذي كان مرفوضاً كلياً لدى معظم البارونات، ومع أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد آثرا هذا الاقتراح، وسعيا في سبيل تأمين قبول فعلي من قبل المحكمة العليا في عكا، لقد كانت المعارضة قوية جداً، وقد قادها اللورد الشاب لقيسارية، مع مؤيديَ الإيبلينيين، وبدأ شعب عكا بالشغب، مما عطل اجتماع المحكمة وجعل أسقف صيدا مع إثنين من الوكلاء السالفين يفرون طلباً للسلامة، وقوبلت محاولة الامبراطور بالتصالح برفض حاد، ونال حزب الإيبلينيين نصراً نوعياً، إلى حد أن المحكمة العليا قد أعلنت أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد هما الوكيلين الصحيحين للملك كونراد، وكانت النظرية التي رست وراء هذا الاجراء هي أنهما قد انتخبا من قبل المحكمة إثر وفاة الملكة إيزابل، وزيادة على هذاقد جرى تعيينهما من قبل فردريك شخصياً في المحكمة

العليا، وأن الذي إتخذ إجراءاً في المحكمة يمكن نقضه هناك فقط، ثم إن التعيين بوساطة الرسائل غير مقبول، وسيبقى التعيين القديم قائماً حتى يأتي كونراد شخصياً، ويعين وكلاء جدد، وكان هذا الإجراء عظيم القيمة بالنسبة للإيبلينيين ذلك أنه فصل بالين ويودس عن فيلنغر وحزب الامبراطور في صور، وربط مصالحهما جزئياً مع ثوار القبارصة ، وترسخ وضع جون دي إيبلين في منصبه مقدماً لـ «كومونة» عكا.

ومع نهاية سنة ١٢٣٣كان وضع أعوان الحزب الامبراطوري في سورية سيئاً جداً، وجاء هذا محصلة لطرد قواتهم طرداً تاماً من قبرص، ولأن عكا أعلنت الثورة وانتظمت داخل«كومونة» ثورية، وبسبب أن المعتدلين الذين أيدوا بالأصل الجانب الامبراطوري قد باتوا غرباء عن الحامية الامبراطورية وخضعوا لحزب الثوار، وكذلك بسبب رفض التسوية التي عرضها الامبراطور، يضاف إلى ذلك النقص المتزايد في الموارد المادية، وحافظت حامية صور على إخلاصها للامبراطور،وبقي ولاته يحكمون في القدس وفي عسقلان، لكن مع هذا لئن لم تكن القوات الامبراطورية قد طردت نهائياً من سورية، لقد كان من الضروري إقامة سلام ما في الحال.

## د — *الصراع مع صور، ١٢٣٤ ـ ١٢٤٣*

ومع أن آفاق المستقبل للامبراطوريين كانت في أدنى حدودها مع بداية سنة ١٢٣٤، لم يكن كل شيء قد ضاع إذا كان أمكن إقامة سلام دائم، وعمل ألبيرت بطريرك أنطاكية بنشاط ومعه هيرمان فون سالزا، الذي أعيد إلى سورية لمساعدة النائب البابوي، في تأمين معاهدة سلام مقبولة من الحزب المعتدل، الذي بقي مخلصاً للملك كونراد لكنه معادٍ لفيلنغر، وقد ضم هذا الحزب أكثرية بارونات المحكمة العليا، ونتيجة لذلك تم في أوائل سنة ١٢٣٤ إقامة سلام مبدئي بين يودس دي مونتبليارد والبارونات وسكان عكا من جانب، وفون سالزا والنائب البابوي من الجانب الآخر، وقد أرسل مشروع هذا السلام إلى البابا وإلى

الامبراطور للموافقة عليه، ووافق غـريغوري في ٢٢ ـ آذار ـ لعام ١٢٣٤، وفي آب التالي بعـث فردريـك مع البـابا رئيـس الأساقفـة تيري صاحـب رافينا بمثابة نـائب خاص ليتولى إبرام الاتفاق في سوريـة، وأرسل البابا في الوقت نفسه رسـالة إلى جون دي إيبلين يأمره فيها بإيقـاف عصيانه ضد الامبراطور، وقد طلـب منه إقامة سـلام على الفور، لكن الإيبليني مـا كان ليهزم بمجرد أمـر بابوي، ونجد في هذا المجـال وفي مجالات أخرى تشابهاً مدهشاً فيما بين الإيبليني والقديس لويس صـاحب فرنسا، ففـي الوقت الذي كـانا فيه متدينين شخصيـاً بعمق، لم يسمح أي منهما للكنيسـة بأن تملي عليه ماهو مضاد لما أملاه عليه ضميره وحسن تدبره .

ونتيجة لهذا مـرت السنة وانتهت دون قبول الحزب الثـائر للسلام، وفي تموز عـام ١٢٣٥ كتب البـابـا غريغـوري ثـانية الى الإيبليني طـالباً منـه الخضوع، وقال البـابا بأن الإيبليني كـان يضلل الناس في عكا ويبعـدهم عن خضوعهم الحقيقي للامبراطور، وأنه كـان يخطط لخيانة أعظم بالهجوم على صور، وهـذا ما ينبغـي له عدم القيـام به بل يتـوجب عليـه الخضوع لـلامبراطور، وأن يقيـم سلامـاً يحترم حقوق فـردريك، وفي الـوقت نفسـه أرسلت رسائل إلى عكـا تأمرهم بعـدم مسايرة الإيبليني في خيـانته، وإلى الداوية تطلـب منهم مساعدة فيلنغر ضـد الإيبليني والثوار الذيـن كانوا يخططون لمهـاجمة صور، هـذا ولم يكن غـريغوري راغبـاً في اتخاذ إجراءات قاسيـة جداً ضد عكـا، وعندما وضـع رئيس الأساقفـة تيري المدينة تحت الحرمان الكنسي في محاولة منـه لفرض الطاعة، ألغى البـابا الحرمان، على أساس أن أهـالي عكا كانـوا محاطين بعدد مـن العقائد الأصوليـة، وهكذا من الممكـن خسارتهم خسارة أبديـة بالنسبة للكنيسـة الرومانية في حـالة فصلهم وإبعادهم عن جماعتهـم بهذه الوسيلة، ومعنى هذا أن المسيحيين اللاتين فيما وراء البحار قـد يجدون ولاءً جديداً في إحدى العقـائد الأكثر لطفـاً، وشرقية أقـل مـركزيـة، غير مثيرة دومـاً لقسوة البـابـا نحو أخطـاء

الكاثوليك السوريين، ووضع غريغوري بالوقت نفسه عدداً من الحلول، فكر بأنها ستكون موائمة كقاعدة لسلام دائم : وبموجب ذلك كان سيعترف بكل من فردريك وكونراد على أنهما الحاكمين الشرعيين للقدس، وبالتالي سيمتلكان جميع السلطات التي امتلكاها قبل بداية الحرب، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع، وفرض الضرائب، وغير ذلك، وقد توجب عليهما إطاعة القوانين والعادات القديمة للمملكة،كما توجب حل«كومونة» عكا، وتهديم برج ناقوسها، وإلغاء مجالسها ومجامعها التي انتخبت بعد العصيان وحلها، كما ينبغي إعادة فيلنغر إلى وظيفته كوكيل حتى بداية أول آذار المقبل، ففي ذلك الوقت ينبغي تعيين وكيل جديد، وسبب ذلك أن فيلنغر قد تعرض للتشكيك به بشكل غير عادل من قبل أهل عكا، وينبغي في الوقت نفسه إبرام إتفاق سلام مع الملك هنري ملك قبرص، وتكفل البابا بتأمين أخذ قبرص بالشروط المقترحة والموافقة عليها، وقوبل هذا البرنامج بشيء من المعارضة من قبل ممثلي الامبراطور، أي بيرو ديلا فيجنا والأسقف المنتخب لباتيPatte ، لكن غريغوري تابع العمل حول محاولة السلام متخذاً هذا البرنامج بمثابة قاعدة، وقامت المحكمة العليا في عكا، بناء على اقتراح فون سالزا، بإرسال رسولين هما هنري صاحب الناصرة،وفيليب دي تروي، وكانا كلاهما من فرسان عكا، إلى البابوية، مع تعليمات بعقدمعاهدة، وفي شباط ١٢٣٦، كان البابا قادراً على أن يكتب إلى فردريك ، بأن السلام قد تأسس على الخطوط العامة لاقتراحاته، وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الخطة الأصيلة، التي قضت ببقاء فيلنغر في وظيفته كوكيل حتى الأول من أيلول، لكن في تلك الآونة نفسها يتوجب تعيين واحد من الأتباع السوريين للامبراطور، كان قد اختاره يودس دي مونتبليارد، ليقوم بواجبات وأعمال الوكيل حتى انقضاء مدة تعيين فيلنغر، وينبغي أن يقوم فيلنغر في أيلول بالتخلي عن الوكالة ومن ثم إسنادها إلى بوهيموند صاحب أنطاكية،

الذي سوف يتولى جميع الحقوق الملكية باستثناء الإشراف على قلعة صور، التي توجب وضعها تحت حراسة فرسان التيوتون، وإذا حدث ورفض بوهيموند هذا الشرف، ينبغي منحه إلى مونتبليارد، وأيضاً إذا ما رفض هذا، ينبغي تعيين واحد من الأتباع الإقطاعيين، ولسوف يتم العفو تماماً عن جميع الثوار ومسامحتهم، باستثناء الإيبلينيين : جون صاحب بيروت، وأولاده، وأولاد أخيه وهما: جون صاحب يافا، وجون صاحب قيسارية، فهؤلاء كانوا سوف يمنحون العفو والمسامحة داخل مملكة القدس، لكن بدون ضمان سلامتهم في مكان آخر، وإذا ما رفعت أية دعاوى ضدهم فالمتوجب معالجتها في المحكمة العليا للقدس، لكن البابا كان قد تصرف من دون استشارة البارونات السوريين، وهكذا عندما حملت هذه الشروط المتعلقة بالسلام إلى المحكمة العليا في عكا بوساطة الرسولين اللذين أرسلا لمناقشة المعاهدة، شعر بارونات المحكمة بالغضب الشديد، حتى كادوا أن يبطشوا بالرسولين التعيسين، اللذين اتهموهما بالخيانة، وأنهما تصرفا على عكس ماليديهما من تعليمات، ورفضت المعاهدة رفضاً كلياً، ووافقت محكمة عكا على إرسال سفير عام مشترك مع ملك قبرص إلى البابا، ليشرح له أسباب معارضتهم للسلام، ووقع الاختيار على الفارس غيوفري لى تور للقيام بهذه المهمة الدقيقة، وقد وصل إلى جنوى في ربيع ١٢٣٧، وقد وجد البابا في فايتربو Viterbo حيث قدم إليه الرسائل المرسلة من ملك قبرص ومن المحكمة العليا في عكا وهي التي كان يحملها، ولقد وجد البابا راغباً تمام الرغبة في استقباله والإصغاء إلى شكاويهم، وكان سبب ذلك أن المشاكل كانت تفجرت من جديد بين البابا والامبراطور، ولم يعد غريغوري مهتماً بشأن مصالحة فردريك وتقوية وضعه، وبالنتيجة حرر غريغوري بكل سرور البارونات المحتجين من المعاهدة، ووعدهم بدعم الكنيسة في الدفاع عن حرياتهم .

وحدث في أثناء سير هذه المباحثات أن فقد البارونات قائدهم الذي

كان قد تولى قيادتهم بحكمة في أثناء معارضتهم للامبراطور ووكيله، فقد مات جون دي إيبلين صاحب بيروت العجوز في عام ١٢٣٦، وبدا أن روح الحزب الذي أسسه قد ماتت إلى حد كبير بموته، وفي الغرب كان فردريك مهتماً اهتماماً كبيراً في أن يحاول جاداً استرداد سلطاته في سورية، وقد رضي خلفاء صاحب بيروت بالحفاظ على هدنة مع الوكيل الامبراطوري في صور من سنة ١٢٣٧ حتى سنة ١٢٤١ ، وترك إخفاق خطة السلام البابوية بالطبع المسائل تماماً كما كانت قبل اقتراح المخطط، وتابع فيلنغر حكمه في صور بوصفه الوكيل الامبراطوري، وبالإضافة إلى هذا، حكم يودس دي مونتبليارد ـ على كل حال ـ في عكا بمثابة وكيل لكونراد، وذلك بتأييد المحكمة العليا، وما من واحد من الوكيلين اعترف بالآخر، وادعى كل واحد منهما بأنه الوكيل الحقيقي لكونراد، فقد عمل يودس تحت سلطان تعيين قديم جاء من المحكمة العليا، وعمل فيلنغر في الوقت نفسه في ظل شرعية تعيينه من فردريك، الذي كان هو نفسه الوكيل لكونراد، وبما أن دي مونتبليارد لم يحاول اتخاذ أي إجراء ضد الإيبلينيين، تم قبول حكومة عكا من قبل البارونات الثوار .

وكانت الحوادث الأعظم في تاريخ سورية في هذه الآونة هي التي تعلقت بصليبيتي كل من ثيبوت أوف شامبين، ورتشارد أوف كورنوول، وطلب فردريك من الصليبيين تأجيل هجومهم حتى انتهاء موعد هدنته مع مصر، وعرض أن يتولى قيادتهم بنفسه إذا ما قاموا بإنتظاره، واعترض البابا على التأخير المقترح، وغادر الصليبيون بدون تأييد الامبراطور، مع أنه عرض بكرم تزويدهم بكميات كبيرة من الميرة والأطعمة، وكانت دمشق ومصر مرة جديدة تتحاربان، وفلسطين تعاني من ثم من الصراع بين القوتين الأعظم، وجرى احتلال القدس لوقت قصير من قبل المسلمين، وأرغمت الحامية الصليبية على الفرار، وكان الداويةيتباحثون مع دمشق من أجل التحالف، والإسبتارية مع مصر، وقرر الصليبيون

تحت إمرة ثيبوت الهجوم على مصر، وزحفوا جنوباً حتى تنزل بهم هزيمة ساحقة على أيدي المصريين قرب غزة في تشرين الثاني لعام ١٢٣٩ ، وحدث إثر هذا، أنه تحت ضغط كل من الداوية والاسبتارية قبل الصليبيون المضطربة أوضاعهم بتحالف الداوية مع دمشق، وبتحالف الاسبتارية مع مصر، وعندما وصل رتشارد أوف كورنوول، أعلن عن حياده وتابع زحفه حتى يتولى تحصين يافا وعسقلان، المدينتان اللتان حولهما إلى حكم وولتر بنينباي Pennenpie، وكان والي فردريك على القدس، ثم إنه جدد المعاهدة مع مصر وانسحب،وكانت هذه الصليبية عملياً بلا نتائج، مع أن الكونت رتشارد الذي كان صديقاً قريباً من الامبراطور، زاد من تحسين السمعة الامبراطورية ومتن وضعها في المشرق، وتابع فردريك في الوقت نفسه إرسال الامدادات والمساعدات إلى فيلنغر في صور، وذلك بغية المحافظة على سلطته هناك، وتم في سنة ١٢٤١، تأمين إعتراف بالطاعة من قبل : بالين دي إيبلين صاحب بيروت، وفيليب دي مونتفورت صاحب تبنين، وجون دي إيبلين صاحب أرسوف، وغيوفري دي ايسترين Estrainge صاحب حيفا، وكان هؤلاء قادة الحزب الإيبليني القديم، وقد جاء خضوعهم من خلال وساطة الكونت رتشارد، وقد وافق هؤلاء على الخضوع لحكم فردريك إذا وافق هذا الامبراطور على تعيين الايرل سيمون دي مونتفورت أوف ليستر وكيلاً له في المملكة حتى يصل كونراد إلى السن، ومن ثم يقدم لتسلم مملكته، وكان من المفيد توقع ماكان يمكن أن يكون التأثير على تاريخ كل من انكلترا والقدس لو قام الامبراطور بهذا التعيين .

وجاء العمل التالي في الصراع بين الامبراطور والبارونات متمركزاً حول محاولة فيلنغر المخفقة في الحصول على السيطرة على عكا، الأمر الذي دفع بالإيبلينيين بالشروع بأعمال ا نتقامية ضد صور، وشجعت خطههم من قبل مارسيليو جورجيو Marsiglio georgio ، الذي كان الوكيل

البندقي الجديدالتعيين، الذي كان متشوقاً لاسترداد بعض الممتلكات المحددة التي عادت لبني قومه في صور، والتي صودرت هناك من قبل الوكيل الامبراطوري، وكان بالين صاحب بيروت وفيليب دي مونتفورت قد وضعا خططهما للزحف ضد صور، مما يعني تجديد العصيان ضد الامبراطور، عندما اقترح عليهما فيليب دي نوفار خطته، التي يمكنهما بموجبها الحصول بشكل قانوني على صور وبدون إعلان العصيان على حاكمها القانوني، فقد بين أنه في ٢٥ نيسان ١٢٤٣ يكون الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبذلك تنتهي وكالة فردريك عن ابنه بشكل آلي، ومع انتهاء وكالة فردريك تنتهي بداهة سلطة فيلنغر، ونتيجة لهذا إذا ما انتظر البارونات حتى ما بعد ٢٥ ـ نيسان، فإن فيلنغر يصبح بدون وضع شرعي في صور، ويمكن وقتها للبارونات طرده بشكل شرعي كامل وبدون ضرر، وبدت هذه النصيحة جيدة بالنسبة لقادة الحزب وقد قبلوها جميعاً، ولكي يكون وضعهم أكثر ضماناً جلبت أليس القبرصية، التي طالبت بالعرش في سنة ١٢٢٩ بحكم كونها أقرب الورثاء الموجودين في البلادوقد أحضرت ثانية هذه المرة واقترحت لتكون وكيلة، وجاءت إدعاءاتها هذه المرة ليس للمطالبة بالعرش نفسه بل بالوكالة حتى يقدم كونراد شخصياً، ويستحوذ مباشرة على مملكته، وتولى فيليب دي نوفار عرض مطالبها على المحكمة العليا، وقد جرى قبول هذه المطالب، وكان أول عمل قامت به الوكيلة الطلب بأن يجري استسلام مدينة صور وقلعتها إليها، المطلب الذي رفض بالطبع من قبل الحامية العسكرية الامبراطورية التي كانت هناك تحت إمرة لوثير فيلنغر آنذاك لغياب أخيه رتشارد الذي كان قد أبحر إلى الغرب للتشاور مع الامبراطور، وقام بعض سكان مدينة صور بإجراء مفاوضات سرية من أجل تسليم المدينة، وإثر هذا زحفت قوات بارونية ضدها، واستولت عليها بالقوة، وتراجع لوثير فيلنغر والحامية إلى القلعة، وحوصروا هناك من قبل الإيبلينيين المنتصرين ومعهم أنصارهم، وجاء الآن دور رتشارد

فيلنغر، فهو لم يعرف أخبار الحوادث التي وقعت ، وأبحر إلى ميناء صور دونما انتباه،وهناك ألقي القبض عليه من قبل أعضاء حزب البارونات ، ولم يستطع البارونات تأمين استسلام القلعة مقابل حياة المارشال، لكن مع هذانجح فيليب دي نوفار بضمان استسلام القلعة وإطلاق سراح الأسرى، ومع سقوط صور حقق حزب البارونات انتصاراً كاملاً في شمال فلسطين، وبذلك بات الحكم الامبراطوري منتهياً بالفعل .

## هـ ـ خاتمة ١٢٤٣ ـ ١٢٤٧ .

وأنهى فيليب دي نوفار تاريخه مع سقوط صور، ذلك أنه مع إزاحة الحامية العسكرية الامبراطورية من تلك المدينة، وصل الصراع الامبراطوري ــ الإيبليني إلى نهايته، واستمرت الحاميات العسكرية الامبراطورية بالاستيلاء، على القدس وعلى عسقلان في الجنوب لمدة عام آخر، ففي عام ١٢٤٤ جرى الاستيلاء على القدس من قبل القوات الخوارزمية التركية، وتولى توماس أسيرا، الوكيل الامبراطوري الجديد، الذي بعث به فردريك في عام ١٢٤٢ ليحل محل فيلنغر، إعطاء عسقلان إلى الاسبتارية ليتولوا حراستها، وجرى استدعاء رتشارد فيلنغر إلى إيطاليا على الفور إثر سقوط صور، وتعرض هناك للإهانة والسجن بسبب إخفاقه، ونجا أخوه لوثير من الانتقام الامبراطوري بالفرار إلى انطاكية في عام ١٢٤٧ ، وحلل البابا انوسنت الرابعه الملك هنري ملك قبرص من يمينه إلى الامبراطور ووضعه مع مملكته تحت حماية الكرسي المقدس، كما لم يتمكن أسيرا ، الذي كان الوكيل الجديد من المحافظة على نفسه في سورية لمدة طويلة، وهرب أيضاً في عام ١٢٤٨ إلى أنطاكية ــ طرابلس، وقد طلب البابا طرده من هناك، واستمرت أليس بالحكم على أنها صاحبة القدس وذلك حتى موتها في سنة ١٢٤٦ ، ووقتها خلفها ابنها هنري الأول صاحب قبرص، لكنه لم يتمكن من نيل اللقب الملكي في القدس، لأن الملك كونراد كان ما يزال هو الملك الشرعي، وكان الملك

القبرصي هو سيد القدس فقط حتى يأتي الملك كونراد، ويحصل على عرشه ومملكته، والذي حدث أنه فقط مع زوال حكم أسرة هوهنزتوفن إثر وفاة كونرادين في سنة ١٢٦٨، وقتها استطاع هيوج الثالث ملك قبرص أن يضيف إلى لقبه، وهو ملك قبرص، لقب ملك القدس، عاداً نفسه«الملك اللاتيني الثاني عشر للقدس، وملك قبرص» .

وكان تاريخ مملكة القدس من عام ١٢٤٧، عند الانتهاء الفعلي الكامل للحكم الامبراطوري، وإلى فقدان المملكة لصالح المصريين، تاريخاً عاصفاً بما فيه الكفاية، فقد وقف الداوية ضد الاسبتارية، وقاتل البنادقة الجنويين، وادعى شارل دي أنجو حقه بالعرش وذلك ضد دعاوى بيت لوزغنان، وتحارب المصريون والمغول من أجل الاستحواذ على سورية، ولقد تورطت الدول اللاتينية في صراعهم هذا، ووسط هذه الفوضى والاضطراب الشديد تفككت أوصال المملكة ببطىء، وسقطت مدينة تلو الأخرى في أيدي المسلمين، وفقط في الأيام اليائسة الأخيرة في عكا سنة ١٢٩١ ، نسي الفرقاء داخل المملكة صراعاتهم وعداواتهم المتبادلة وكراهيتهم لبعضهم بعضاً، واتحدوا، وعبثاً حاولوا ببطولة إنقاذ المتبقي من المملكة، ولكن جاء متأخراً جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر لئن كانت المملكة التي كان الإيبلينيون مع حلفاتهم قد قاتلوا في سبيلها بكل عناد في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر قد زالت قبل نهاية القرن، فإن المؤسسات الدستورية التي قاتلوا من أجل الحفاظ عليها قد استمرت بالبقاء في قبرص لمدة قرنين إضافيين، وظلت حقوق الأفراد والحد من سلطات التاج حجر الأساس في المؤسسات السلطوية في قبرص طيلة استمرار حكم أسرة لوزغنان، زد على هذا توجب على البارونات الفلسطينيين الرضى بالأسى لدى معرفتهم بمصير عدوهم القديم، حيث كان هذا المصير أسوأ بكثير من مصيرهم، فقد أنهى فردريك حياته وسط مشاكل

الحرب الأهلية وتحت الحرمان البابوي، أما فخار مملكته في صقلية فقد جرى الاستيلاء عليها من قبل الفرنسي شارل دي أنجو، وغدت الامبراطورية الألمانية فريسة للمتنازعين، وليست أفضل حالاً من الذين إنهاروا في القدس، وتهاوت الواجهة الجبارة لأسرة هوهنز توفن وسقطت حتى قبل سقوط المملكة الشرقية الصغيرة التي كانت قائمة على سواحل البحر المتوسط .

وهكذا كانت الخاتمة خاتمة محزنة، ولعل القارىء يشعر في هذه الأيام بالسرور لأن السيد فيليب دي نوفار لم يعش ليرى الأوقات الشريرة التي هوت فيها البلاد التي عاش فيها، فقد انتهى تاريخه مع إشارة لنصر، وكما هي الحالة في الرومانسيات الحقيقية ينال جميع الأبطال الجوائز، لكن الأشرار يتعرضون للمذلة والعقوبة، فلقد كتب فيليب تاريخ حرب رائعة فيها انتصارات، كما تحدث عن انتصار القانون، والفضيلة، والتقوى، على الخيانة والجريمة والاغتصاب للسلطة، ولكم كان محزناً لو أن الرجل العجوز قد رأى النهاية المفجعة لجميع جهوده، ولو أنه أرغم على إدراك أن الصراع الذي خاضه مع أبناء عصره باسم الحرية قد أضعف دولتهم وجلب إليها السقوط ضحية حقيقية لتمزقهم الداخلي ولصراعاتهم، ولاشك أن نصر الإيبلينيين الذي أرخ له فيليب قد حفظ الحريات العائدة لمملكة القدس، لكن من المؤكد أنه أسهم في الخسارة النهائية للمملكة نفسها (*) .

---

* ـ هذا صحيح لو عزونا أسباب سقوط عكا إلى أسباب داخلية محضة، لكنها سقطت نتيجة لما تمتعت به السلطنة المملوكية من إمكانات متفوقة .

## تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك
## وبين جون دي إ يبلين صاحب بيروت

## *هنا يبدأ التاريخ مع الرواية الصحيحة*
## *حول الحرب التي وقعت بين الامبراطور فردريك*
## *والسيد جون دي إيبلين، صاحب بيروت*

١(٩٧) : ومن أجل فهم أحسن ومعرفة كيف وقعت هذه الحرب،وكيف بدأت وتوالت، وكيف حدث أن بعضاً من القبارصة التحقوا بالامبراطور، بينما التحق الجزء الأكبر بصاحب بيروت، سيقوم فيليب دي نوفار الذي أسهم في جميع الأعمال والاجتماعات، والذي غالباً ما كان محبوباً من قبل الناس الجيدين لروايته الصدق، ومكروهاً من قبل الأشرار للسبب نفسه، سيقوم بإخباركم بالصدق حولها، وسيحدثكم أيضاً عن الرجال وعن الأفعال العظيمة .

٢(٩٨) : ولقد حدث، بإرادة من ربنا، أن هيوج (١) الملك الطيب لقبرص، الذي كان شجاعاً جداً، قد ذهب إلى الحج في طرطوس(٢)، ومن هناك قصد طرابلس(٣)، حيث كان مريضاً،ثم أنه انتقل من هذا العالم في عام ١٢١٨ وكان ذلك في اليوم العاشر من كانون الثاني، وقد دفن في مشفى القديس يوحنا(٤)، وكانت الملكة أليس (٥)زوجته ماتزال شابة، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد(٦) : ولد ذكر وابنتين، وكان عمر الذكر تسعة أشهر فقط(٧)، وكان اسمه هنري، وقد عرف باسم الملك هنري غراس(٨) Gras، وكانت الملكة أليس المتقدمة الذكر ابنة أخت (٩) مولاي جون صاحب بيروت(١٠)، وكذلك للسيد فيليب دي إيبلين أخيه (١١) .

٣ : وقدم جميع أتباع الملك الولاء للملكة بمثابة وكيلة، وسأل جميع

الأتباع وطلبوا من السيد فيليب دي إيبلين، أن يكون وكيل قبرص ليتولى حكم البلاد، وأن يستحوذ على البلاط والأمر على الناس(١٢)، وكان الملك هيوج نفسه قد تمنى هذا وأمر به عند موته، وتسلم السير فيليب الوكالة، وقد نال منها الكثير من المتاعب والحزن، في حين استحوذت الملكة أليس على الموارد التي أنفقتها حسبما أرادت(١٣)، وحكم السير فيليب البلاد بشكل جيد وبسلام، وبكثير من الجودة والشرف والاخلاص والإنفراج، وكان مولاي صاحب بيروت قوياً جداً في سورية، وقد قدم وقت كل حاجة المشورة الجيدة والعون العظيم لشؤون قبرص .

٤(١١٠) : وحالما صار هنري الصغير ـ ابن الملك المتقدم الذكر، ملك قبرص ــ كبيراً ما فيه الكفاية (١٤)، توّجه خالاه مع الإقطاعيين الآخرين وسط احتفال عظيم، وتولى ذلك يوستوريو Eustorgue رئيس أساقفة نيقوسيا(١٥)، وهيأ كل ما هو لائق لتتولى الكنيسة القيام به أثناء التتويج(١٦)، وكان الامبراطور فردريك غاضباً جداً، تجاه هذين العملين، عندما سمع بهما، وأعني بذلك الوكالة والتتويج، لأن الملك هنري توجب أن يكون تابعاً إقطاعياً له(١٧)، وقد قال بأن الوكالة له، وأنه ينبغي أن يكون ـ بموجب إجراءات ألمانيا ـ وكيل قبرص حتى يصبح الملك في الخامسة عشرة من عمره(١٨)، وبعث الامبراطور عدة مرات إلى الملكة أليس، ملكة قبرص، أن تدعه يتولى وكالة قبرص بنعمة، فذلك سوف يرضيه(١٩)، وقد غضب أكثر نحو التتويج،وقال،لقد توجب أن لا يتسلم الملك هنري التاج إلاّمنه، وأرسل في خلال ذلك رسائل مرضية جداً إلى الأخوين : مولاي صاحب بيروت، والوكيل السير فيليب، ودعاها دوماً برسائله بالخالين، لأنهما كانا خالين للملكة إيزابل ملكة سورية، التي كانت زوجته (٢٠) .

٥(١١١) وكان في هذه الأثناء بعض الرجال الشباب في قبرص، وكان اسم أولهم السير عموري برلياس(٢١)، واسم الثاني عموري صاحب

بيسان(٢٢ - ٢٣)، وكان هذان أبناء عم من بيت واحد،وكان اسم الثالث السير جوفيان(٢٤) Gauvian، وكان الرابع هو السير وليم دي ريفت(٢٥)، وكان هذان ينتميان إلى بيت واحد، وكان اسم الخامس السير هيوج صاحب جبلة(٢٦)، وقد انتسب إلى بيت آخر، وكان قريباً لأبناء مولاي صاحب بيروت من خلال أمهم، وقد اتفق هؤلاء الخمسة، وتآمروا ضد البيت الإيبليني، مع أنهم عاشوا في حظوة ذلك البيت وتسلموا منه كثيراً من الممتلكات وكثيراً من الحب، لاسيما من مولاي صاحب بيروت أكثر من أي إنسان آخر، وقد امتلأوا بالتكبر، الذي غالباً ما صدر عن الثراء والدعة، وبما أن كثيراً من الناس لايمكنهم تحمل الرخاء، فقد قادهم ذلك إلى ما قالوه وإلى مافعلوه، وتوفرت دوماً الأسباب، وعن هؤلاء سوف تسمع فيمايلي :

٦(١١٢) وحدث أن مولاي صاحب بيروت جعل من ولديه الكبيرين فارسين في قبرص(٢٧)، وكان أولهما السير بالين، الذي غدا فيمابعد قسطلان قبرص وصاحب بيروت(٢٨)، وكان الثاني هو السير بلدوين، الذي أصبح كافل مملكة قبرص(٢٩)، وفي أثناء تكريس الفارسين كانت هناك حفلة عظيمة وطويلة كانت هي الأعظم والأطول مما قام به أي إنسان في هذا الجانب من البحر، أو عرفه، وكان هناك كثير من العطايا والانفاق والمبارزات، وجرى إعادة إخراج(٣٠) مغامرات بريتاني والمائدة المستديرة، كما كانت هناك عدة أشكال من الألعاب .

٧(١١٣) :وفي أحد الأيام بعد تكريس الفرسان، كانوا يلعبون لعبة اسمها Barbadaye (٣١)، وقد حدث آنذاك أن قام فارس توسكاني اسمه تورينول(٣٢) Toringuel وكان من حاشية بيت السير فيليب الوكيل، بطعن السير عموري برلياس كما يفعل الانسان أثناء الألعاب، وقد قيل بأن السير عموري قد غضب وقال بأنه فعل ذلك بشكل شرير وعنيف جداً، ولهذا توقفوا عن اللعب، وكمن في اليوم التالي للفارس هو

وقـواته. وهـاجموه بشكل وحشي حتى أنهم جـرحوه وبـات مهدداً بخطـر الموت، وكـان لهذا السير فيليـب غـاضبـاً جـداً، وأراد مقـاتلـة(السير عموري)، ووقف جميع حلفائه إلى جـانب السير عموري، غير أن القضية لم تـؤثـر شيئـاً على قوة السير فيليـب ــ الـوكيل ــ فقـد تـدخل مـولاي صاحب بيروت ــ أخوه ـ فيما بينهم، وفصـل فيما بينهم بالقوة، وأمـر ابنه السير بالين بأن يأخذ السير عموري من هناك إلى حيث أراد .

٨(١١٤) : ولم يمض وقت طـويل حتى غادر السير عموري بـرلياس قبرص ومضى إلى طـرابلـس، وبقي هنـاك كـل الشتـاء، وذهب مـولاي صاحـب بيروت من قبرص إلى بيروت وأمر بـالبحث عن السير عمـوري بـرليـاس في أيـام عيـد الفصح، ثـم حملـه إلى قبرص وأحضره فجأة أمـام أخيه، حيث كان الأخير لايعرف شيئاً عن ذلك، وقال (مولاي صاحب بيروت) لأخيه بأنـه يرغب منـه مسامحة السير عموري بكل وسيلـة وبكل طريقـة، وقال إنه إذا لم يفعل ذلك هـو لن يكلمه أبداً، ولن يـراه مطلقاً، وأنـه سـوف يقبل مصـالحة مشـابهة للتـي هي معـروضـة مـن قبل السير عموري(٣٣)، وقبل الوكيل بالمصـالحة فقد ذهب (٣٤) بعيداً، واستحوذ السير عموري على بـراعة كبيرة، وكـان مؤيـداً لكل واحد مـن اللوردات، وكان رفيقاً وثيـق الصلة بالسير بالين وأظهر نحـوه محبة كبيرة، وحدث في هذه السنة(١٢٢٥) أو بعيد ذلك بقليل، أن الملكة أليس ملكة قبرص قد غضبت مـن خـالها ومن الإقطـاعيين الآخـريـن، وذهبت إلى طـرابلـس، وبدون رضـا أو موافقة خـالها والاقطاعيين تزوجت هنـاك من بوهيمـوند ابن أمير أنطاكية(٣٥)، وأعلن جميع الذيـن كانوا في قبرص وخاصة السير عموري برليـاس أنه إذا صار الأمير وكيلاً لقبرص واستحـوذ على السلطة هناك سيكون معنى ذلك موت مولاهم الصغير ودماره .

٩(١١٥) : وتخلى السير فيليب دي إيبلين بعـد هذا بـأمد وجيـز عن الوكالة،وذلك على الرغم من عـدم رضا جميع أهل البلاد، وأرسلت الملكة

أليس التي كانت في طرابلس رسالة أمرت بموجبها بأن يكون عموري برلياس الوكيل إلى أن تتمكن من القدوم إلى قبرص، وقبل السير عموري بذلك من دون موافقة أي إنسان في قبرص(٣٦)، لأنهم نظروا إليه نظرة إزدراء كبيرة، واجتمعوا في المحكمة وقال السير فيليب دي إيبلين بأنه يرى في هذا التعيين إهانة كبيرة بالنسبة إليه ورعونة قصوى في أن يمنح السير عموري وأن يتقبل السيادة عليه وعلى الرجال الطيبين الآخرين في قبرص، وأنه ليس هو الرجل الذي يفعل ذلك، لأن ذلك معاكس لما قاله هو نفسه عندما تزوجت الملكة أليس من الأمير، وقام السير أنسيو Anceau دي بري وقال : إن السير عموري برلياس في كل ما قاله وفعله فيما يتعلق بهذا الأمر هو قد عمل بمثابة خائن، ولو أنه كان حاضراً هناك لقال هذا بوضوح أكبر ولبرهن عليه(٣٧) .

١٠ : وكان السير أنسيودي بري هذا ابنا لابن خال ألماني لمولاي صاحب بيروت ولأخيه (٣٨) أيضاً، وكان رجلاً شاباً، وقوياً وذا بأس، قوي البنية والعظام ونشيطاً وشديداً، جاهزاً للقيام بأي عمل ولإنجازه، وأديباً نحو رفيقه وعدوه، وكريماً بقدر ما استطاع، وأشقراً وجميلاً، وله بشرة متوردة، وأنف عريض، مع وجه مهيب مرعب يشبه النمر(٣٩)، وأحبه الأخوان حباً جماً، وهو بالفعل قد استحق ذلك، وكان معلوماً أنه كان في الحرب الأعظم تقديراً بعد الأخوين وأولادهما واللورد الشاب الطيب صاحب قيسارية الذي كان ابن أختهما(٤٠)، وعندما سمع السير عموري برلياس بشكل متواتر أن ما قيل بحقه كان قاسياً جداً ، غادر قبرص وذهب إلى طرابلس، حيث قرر الانتظار هناك حتى قدوم الامبراطور، الذي جرى الحديث حوله من يوم إلى يوم، وكانت مقاصده أنه بعون الامبراطور سوف يكون قادراً على إخضاع البيت الإيبليني .

١١(١١٧) وكان قد حدث قبل بعض الوقت أن تشاجر السير جوفيان Gauvain مع فارس اسمه السير وليم دي لى تور، وأصيب

وليم المذكـور بجراحة في الليـل هو وواحد من أبنـاء عمه، وقـد قيل بأن هـذا قد اقترف مـن قبل السير جـوفيان وأهـل بيته، وعـوفي الفـارس من جـراحاتـه، وجاء إلى المحكمـة ومثل أمـام الوكيـل واتهم السير جوفيـان بالخيانـة، ودافع (السير جوفيان ) عن نفسـه، وقدما تعهدتـاهما من أجل القتال، وأنشبـا القتال وأقـاما السـلام على ميدان العـراك، وكان السـلام مغضباً ومذلاً للسير جـوفيان، وقد كبر عليه أن يقوم هذا الفـارس بتوجيه التهمة إليـه، وبدا لـه أن (السير وليم) ما كـان ليقدم على اتهامـه ويتجرأ على ذلك لـولا أنه حصـل على تأييد الإيبلينيين، وكـان (السير جوفيـان) حتى بدون هـذا الحادث على صلات متنافرة معهم، ولم يكن قـريباً منهم كما كان من قبل، ولقـد امتلك بعض العذر، وعلى كل حـال لمعرفة السير جوفيان بالاخلاص العظيم المتـوفر فيهم تجرأ على دخول الميدان ، والقيام هناك بالدفاع عن نفسه .

١٢ ـ وبعدما تـرك(السير جوفيان) الميدان قال بأنـه لم يفهم اتفاقيات السلام التي عقدت عندما كان في الميدان، وأنه لن يتمسك بالعهود التي قطعها آل بيته، ثم أنـه ذهب إلى الداوية وتوجه مـن هناك إلى عكا، ومن عكا عبر البحر إلى الامبراطور ، وقد خـدم الامبراطور لبعض الوقت، وبما أنـه كان يعـرف الكثير عن الطيـور، فقـد حظي بمكـانة عـاليـة في ذلك البلاط(٤١)، وكان الامبراطـور على وشك المغادرة لأن الكنيسة قـد أمرته أن ينفذ تعهداته التي قطعها على نفسه للـذهاب إلى سورية(٤٢)، وتوجه إلى الميناء(٤٣), ووصلت السفـن، وبات العبـور جـاهـزاً تمامـاً، وأجل الامبراطور جوازه حتـى عبور آخر، وذلك حسب ما يـرضيه(٤٤)، غيرأنه أرسل بعضـاً مـن رجـالـه في سفن عبر البحـر(٤٥)، وهكـذا عـاد السير جوفيان عبر البحر إلى قبرص .

١٣(١٢٢) : ومع هـذه الأخبـار السـاخنة التـي انتشرت وأفـادت بأن الامبراطـور قـادم، وقبل معـرفة أنـه أخّـر عبـوره ، ارتأى السير عمـوري

برلياس، الذي كان في طرابلس بأنه سيذهب إلى قبرص إلى المحكمة ليسوغ نفسه ويدافع عنها ضد السير آنسيودي بري وضد ما قاله عنه، واعتقد أنه سوف يمنح فرصة أربعين يوماً قبل القيام بالمبارزة وذلك بعد تقديم عهوده وضماناته(٤٦)، وأنه في أثناء ذلك سيكون الامبراطور قد جاء وأنه سوف يربح قضيته، وذهب السير عموري المذكور إلى قبرص، وتوجه على الفور إلى المحكمة، وعرض الكذب الذي قاله عنه السير أنسيو، وتقدم بطلب الدفاع عن نفسه وبضماناته وتعهداته، وتسلم الملك التعهدات وجرى تحديد يوم المبارزة، وأمر بها بعد موافقة المحكمة، وفي خلال أربعين يوماً وصلت السفن العائدة للامبراطور، وكما تحدثنا من قبل،عُرف أنه لن يأتي بعد، ثم سعى البطريرك جيرولد، بطريرك القدس (٤٧) ومعه الكثير من الناس إلى إقرار مصالحة بدلاً من المبارزة، لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك، لأن السير أنسيو لم يرغب في عقد أي اتفاق، أو القبول بأية اقتراحات للتصالح .

١٤ ـــ وقامت المعركة ، وفيها خسر السير عموري خسارة قبيحة، ففي الصدام الأول كسر السير أنسيو رمحه، واستبقى السير عموري الذي كان ماكراً جداً، رمحه الذي كان مصنوعاً من أحسن الفولاذ في العالم، وقد أمسكه من وسطه، واندفع ليطعن به ثلاث طعنات على واجهة خوذة السير أنسيو، وقد حطم في كل مرة الواجهة وطعنه بالوجه، ولدى الطعنة الثالثة أزاح السير آنسيو جانباً سيفه وتركه من يده، وذلك بعدماسدد به ضربات عظيمة على خوذة السير عموري، وأمسك الرمح من سنانه المعدني بيده التي كان ممسكاً بها السيف، وهكذا انتزع الرمح بالقوة من قبضة السير عموري، فقد كان السير آنسيو قوياً جداً، وجذب الرمح بشدة، وفقد السير عموري الرمح الذي كان ممسكاً بوسطه، وعندما جذبه السير آنسيو جذبه بعنف كبير حتى أنه ألقى بالسير عموري أرضاً، وكان هذا لابساً درعاً ثقيلة جداً، ولهذا سقط سقطة كبيرة

على الأرض وجرح جراحة قاسية، وقد قام بقدر ما استطاع وهرب عبر الحواجز نحو المكان الذي كان فيه مولاي صاحب بيروت، وراء الحواجز .١٥ :وكان قد درب حصانه بشكل جيد جداً حتى أنه لحق به إلى كل مكان، وركض هو نفسه وتبعه فرسه، وأمسك سيفه ووضع نفسه فيما بين الحواجز والفرس، وقام السير آنسيو بكل سرعة بإعادة وضع خوذته، وتناول بقية رمحه، وكان السير عموري قد ازداد ألمه وبات مرهقاً نتيجة لما بذله من جهود، ولم يكن هناك أمامه أدنى سبيل حتى يتمكن من امتطاء فرسه ثانية، لأنه كان مثقلاً بدروعه، وكان فارساً صغيراً، وكان الحصان ضخماً وطويلاً ونشيطاً، ثم وضح لمولاي صاحب بيروت وللذين كانوا هناك أن السير عموري لن يستطيع التحمل أكثر، وقد ضغط عليه السير آنسيو عن قرب، ولولا أنه أبعد عن هناك لكان سيترجل لأنه كان مصراً على ذبحه، ودخل مولاي صاحب بيروت إلى الميدان هو وصاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص(٤٨)، ولم يرغبا بالسماح بالمزيد، وتوفر لديهما هناك بعض الفرسان الذين حجزوا السير آنسيو بالقوة بإمساكهم بمقود حصانه،كما أنهم كانوا قد أمسكوا حصان السير عموري الذي كان مرهقاً إلى حد أنه عجز عن التحرك، ومن ثم تحدثوا عن المصالحة(٤٩) .

١٦ : ووقع هذا اليوم السير فيليب دي إيبلين، وهوأخو مولاي بيروت،مريضاً، وقد أصيب بداء مميت، وقد أخبره أخوه صاحب بيروت بأوضاع المتبارزين، ورغب ـ وهو الذي كان يشعر بالموت ــ بإقامة السلام بأي سبيل من السبل، وبعث إلى السير آنسيو ورجاه وتمنى عليه، وضغط بوساطة مولاي صاحب بيروت حتى قبل وأبرم الصلح، وأقيم السلام، وتبين أن المصالحة كانت مذلة للسير عموري، لأنه توجب عليه أن يدفع نصف فدية ودفعات قاسية وحادة، ولكنه مقابل ذلك أنقذ حياته، وغادر السير عموري الميدان هو والسير جوفيان، وبقية الخمسة

الآخـريـن، وهـم : السير عمـوري صـاحـب بيسـان، والسير وليـم دي ريفيت، والسير هيو صاحب جبلـة، وبعثوا بشكاوى كثيرة إلى الامبراطور ضد بيت الإيبلينيين، وقالوا عنه كثيراً من الأشياء الشريرة والزائفة(٥٠) .

١٧(١٢٣) : وفي هـذه السنـة نفسهـا، وهي سنـة ١٢٢٧ تـوفي السير فيليب دي إيبلين، وكان رجلاً جيداً ونبيـلاً، وأخاً لمولاي صاحب بيروت، وحدثت وفاتـه في قبرص بسبب الداء الذي أصيب به، وكـان هناك حزن عظيم عليه، وشكل مـوته خسارة عظيمة لأصدقـائه وللبلاد، وكان الحزن عليه عظيماً، وعظيماً توجب أن يكون(٥١) .

١٨( ١٢٦ ) : عبر في سنة(١٢٢٩)(٥٢) الامبراطـور فردريـك البحر للقدوم إلى سـورية وذلك بناء على أمر البـابا غريغـوري(٥٣)، وقد وصل أولاً إلى جزيرة قبرص إلى مـدينة ليماسول(٥٤)، وكان معـه سبعين سفينة وغليون، وسفـن نقل الأسلحة وبقية أنـواع السفن، وكان الشطـر الأعظم من جيشه وأهل بيتـه وحاشيته ومارشـاله وخيوله قـد وصلت من قبل إلى عكـا(٥٥)، وأخـذ السير عمـوري والسير جـوفيـان مـع مجمـوعـة مـن أصدقائهما وحاشيتهما سفينة ومراكب مسلحـة وتوجهوا لمقابلة الامبراطور، وأبحروا بعيـداً حتى سواحـل بيزنطة(٥٦)، ومـا إن التقوا به حتـى وجهوا التهم إلى مولاي صاحب بيروت بأنـه لم يعاملهم بشكل صحيح، وأشاروا عليه بـأسوأ الآراء التي يمكنهم فعلهـا ضده و ضـد ورثته وضـد أسرته، وقـد روي بأنهم أخبروا الامبراطـور أنـه إذا مـا تمكـن من الاستيـلاء على قبرص، سيكون بـإمكانه تـزويد سوريـة بجميع الضروريات التـي سوف يحتاجهـا هو وآل بيتـه، وفضلاً عن ذلـك سوف يحصل من تلـك الجزيرة على ألف فارس .

١٩ : واحتفل بهم الامبراطـور احتفـالاً عظيماً، وقدم لهم وعـوداً كبيرة، وأوضح قائلاً أنه مصدق لهم، وبموجب ذلـك كانوا فعلاً مسرورين، وقد وصلوا معـه إلى قبرص،ومع هذا بعث الامبراطـور برسائل لطيفـة جداً إلى

مولاي صاحب بيروت، الذي كان آنذاك في نيقوسيا، يرجوه فيها ويطلب منه بمثابة خال عزيز عليه،أن يأتي للتشاور معه وأن يجلب معه الملك الشاب، وكذلك أولاده الثلاثة وجميع أصدقائه(٥٧)، ثم أرسل إليه رسالة أخرى كانت أشبه بنبوءة بنعمة ربنا، لأنه بعث إليه يقول: إنه هو وأولاده وأصدقائه سوف ينالون الثروة والشرف بقدومه، وهكذا كانوا، والحمدللرب، لكن ليس حسب رغباته، واستقبل رسول الامبراطور استقبالاً جيداً في نيقوسيا، وكان هناك سرور عظيم لدى قدومه .

٢٠ : وجمع مولاي صاحب بيروت رفاقه وطلب منهم إبداء الرأي حول الملك الشاب وحوله شخصياً، وأعلنوا جميعاً بصوت واحد أنه لاهو ولا أولاده ينبغي وضعهم تحت سلطان الامبراطور، كما لايصح ولايجوز لهم ارسال مولاهم الملك إلى هناك، لأن الأفاعيل الشريرة للامبراطور باتت معروفة جداً، وقال مراراً وأرسل تكراراً كلمات ورسائل طيبة، وأتبع ذلك بأفاعيل مرعبة جداً وظالمة، ولهذا أشاروا بأن عليه أن يعتذر بطريقة ما، وقالوا في الوقت ذاته إن جميع أصدقائه وكل قواهم في قبرص كانت تجهز نفسها بسرعة كبيرة، وهؤلاء على استعداد للحاق به إلى سورية في خدمة الرب، وأنهم سوف يخدمونه في سورية بمثابة مولاهم :«وأن هذا كله قد أبدع من قبل أخيك السير فيليب عندما كان حياً»، وكان هذا اجتماعاً جيداً وقراراً حسناً بالنسبة له، لأنه كان هناك في سورية الداوية والاسبتارية مع رجال جيدين آخرين راغبين بالازدهار والسلام، ثم إن الامبراطور لن يكون قادراً على فرض مشيئته على كل شيء .

٢١ : ورد مولاي صاحب بيروت على هذه المشورة قائلاً : بأنهم أشاروا بإخلاص وبحب، غير أنه يفضل أن يؤسر أو يقتل وأن يعاني مما خبأه الرب له، على أن يوافق بأن يكون أي إنسان غير قادر على القول أنه من خلاله ومن خلال أسرته أومن خلال الشعب على هذا الجانب

من البحر، قد جرى تأخير أو إعاقة خدمة الرب في الاستيلاء على مملكة القدس وقبرص(٥٨)،ذلك أنه لايرغب في أن يقترف ذنباً نحو ربنا، كما أنه لايرغب أن يقول الناس في العالم كله :«جاء امبراطور روما عبر البحر مع قوة عظيمة، وكان من الممكن له أن يستولي على كل شيء، لكن صاحب بيروت مع آخرين غير مخلصين من رجال ما وراء البحار أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، ولهذا السبب ثاروا ضد الامبراطور ،ولم يرغبوا في استرداد الأرض المقدسة» .

٢٢(١٢٧) : ولهذه الأسباب التي عرضت أعلاه، ذهب صاحب بيروت إلى الامبراطور ومعه جميع أولاده وكل أصدقائه وقوات قبرص كلها من فرسان وسيرجندية وأخذوا معهم مولاهم الصغير ــ الملك هنري ـ إلى الامبراطور، ووضعوا أنفسهم كلياً تحت سلطانه(٥٩)، وقد استقبلهم باحتفاء عظيم، مع مظاهر من السرور عظيمة، وبدا أن أعداءهم قد خاب ظنهم، وسألهم الامبراطور على الفورإسداء معروف له، بالقيام بخلع الثياب السوداء التي كانوا ومايزالون يرتدونها بسبب موت السير فيليب دي إيبلين، أخوهم، ذلك أنه قال بأن بهجتهم بقدومه ينبغي أن تكون بالنسبة لهم أكبر من الحزن على صديقهم وأخيهم، الذي هو الآن ميت، مع أنه كان أعظم الناس نبلاً وشجاعة، وقبلوا تمام القبول هذا الأمر، وشكروه باخلاص، وعرضوا عليه أجسادهم كلها مع قلوبهم وجميع ما يملكون، ووضعوها تحت تصرفه، وقيد أوامره، وشكرهم الامبراطور لهذا بسرور كبير، وقال بأنه سوف يجيزهم جوائز كبيرة وثرية .

٢٣ : وأرسل الآن إليهم ثياباً أرجوانية بدلاً من الملابس السوداء، وبعث إلى آخرين بجواهر، وسألهم راجياً بلسانه أن يتناولوا طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقد أعدوا ملابسهم بكل سرعة في الصباح التالي، وظهروا جميعاً أمام الامبراطور وقد ارتدوا الملابس الأرجوانية، وقام في الليلة التي تقدمت بفتح باب في جدار الغرفة التي قادت إلى الحديقة،

وكان ذلك بشكل سري ، وكـان ذلك البيت الذي أقام فيه بيتـاً رائعاً،قد بنـاه اللورد فيليـب دي إيبلين في ليماسول،وأدخل الامبراطـور من خـلال هـذا الباب الخلفي بشكـل سري أثناء الليل ثـلاثة آلاف رجـل مسلح أو أكثر مـن السير جندية، ورمـاة القسي العقارة والبحـارة، فلقد كـان هناك تقريبـاً جميع رجاله المحـاربين الذين كـانوا في أسطولـه، وقد وزعهم على الغرف والإسطبلات، وأغلقـت جميع الأبواب عليهم حتى ساعـة الطعام، حيث نصبت الموائد وصب الماء .

٢٤ : وجلـس الامبراطـور وإلى جـانبـه صـاحب بيروت والعجـوز صاحـب قيساريـة الذي كان قسطـلان قبرص، وجلس إلى مـائدة أخرى طويلة في المكان الأول : ملك قبرص، مع ملـك سالونيك(٦٠)، والمركيز حامل الـرمح(٦١)، وبقية بارونـات ألمانيا والمملكة(٦٢)، وأمـر بجلوس جميع فـرسـان قبرص بشكل يستطيع فيـه مولاي صـاحب بيروت سماعـه عنـدمـا يتكلم، ورتـب أن يقف ولـدي مـولاي صـاحب بيروت أمـامـه لخدمتـه، يحمل أحـدهما الكـأس ويحمل الآخـر الطشـت، في حين يقـوم الشاب صاحب قيسـارية مع السير آنسيودي بري بتقطيع اللحـوم أمامه، وتوجب على الأربعة إرتداء أزر Tunics وقمصان ضيقة من الرقبة حتى الـوسط فـوق أرديتهم. فهـذا ـ حسبما قيـل ـــ كان قـانـون الامبراطوريـة وعرفها، وقـد خدموه بإرادة طيبـة وبنبل، وفعلوا ذلك مرات عـدة وقدموا أطعمة متنوعة .

٢٥ : وفي دور الطعـام الأخير خرج الـرجـال المسلحـون من أمـاكنهم التي كانوا قد تمركزوا فيهـا، واستولوا على القصر وعلى الغرف وعلى البلاط الكبير وعلى الباب الـرئيسي وبقية الأبواب ....(٦٣)، وكان هنـاك رجال مسلحين بشكل جيد في القصر حيـث كان الامبراطور، وكان هنـاك عدد كبير أمامه يمسكون بالأسلحة بـأيديهم، بعضهم ممسك بمقابض سيوفهم وبعضهم بـالخنـاجر، ولاحـظ القبارصـة ما يجري، لكنهـم لم يتفوهـوا ولا

بكلمة واحـدة، وبذلوا غايـة جهدهم لإعطاء مظهـر الاسترخاء، والتفت الامبراطور نحـو صاحـب بيروت وخاطبـه بصوت مـرتفع قائلاً : أود يـا سير جون أن أطلـب منك أمرين اثنين، إنـك سوف تفعلهما عن طـواعية وبشكل لائق إن كنت تعـرف ما هو المعقـول»، وقد ردّ عيه قـائلاً :« قل ما يسرك ولسوف أفعل عـن طواعية ما سأراه صحيحاً، أو مـا يراه الناس الشرفاء مناسباً» .

٢٦ : وقـال الامبراطـور :«عليك أن تفعـل واحـداً من اثنين : إمـا أن تسلمني مدينـة بيروت، لأنك متملك لها بدون حـق، أو أن تسلمني كل ما يتعلـق بوكالـة قبرص والحكم فيها مع جميـع ما ربحته وحصلـت عليه منـذ وفاة الملـك هيـوج، أي موارد عشر سنـوات، لأن هـذا كلـه حق لي بمـوجب التطبيقات الألمانيـة (٦٤)»، ورد عليـه صاحب بيروت قـائلاً:« أعتقد يا سيدي أنك تهزأ بي وتستخف، ومـن المؤكد بالنسبة لي أن بعض الرجـال الأشرار الذين يكـرهونني قـد اقترحوا عليك هـذا المطلب، ولهذا السبب تقدمـت به، ولكن ـ وفقاً لإرادة الـرب ـ إنك سيد جيـد وعاقل، وإنك تعـرف دوماً المدى الـذي كنا قـادرين بـه على خدمتك، ولسـوف نفعل ذلـك عن طواعيـة،وبذلـك إنك سوف لـن تصدقهم»، ثـم وضع الامبراطـور يده على رأسـه وقـال: «بحق هـذا الرأس الـذي لبس التـاج مراراً، إنني سـوف أنفذ إرادتي في هذين الأمريـن اللذين طلبتهما منك أو إنك سوف تعتقل وتجعل سجيناً» .

٢٧ : ثم انتصب صاحب بيروت واقفاً وقـال بصوت مرتفع وبحضور آمـر :« إنني استحـوذت على بيروت ومستحوذ عليهـا بحكم إنها إقطـاع لي، لأن مـولاتي الملكة إيـزابل(٦٥)كـانـت أختي من خـلال أمي، وابنـة للملك عمـوري(٦٦)، وبذلك كـانت الوريثـة الشرعية لمملكـة القدس، وقـد قامـت هي ومـولاهـا الملك عمـوري(٦٧) بإعطـائي بيروت مقـابل وظيفـة القسطلان، وكـانـت بيروت عندمـا استردهـا المسيحيـون مهدمـة

لـذلك رفضها الـداويـة والاسبتاريـة وجميع بـارونات سـورية(٦٨)،وقـد قمت بتحصينها والمحافظة عليها بـوساطة مساعدات المسيحيين وبفضل عملي، ولقد استخـدمت وأنفقت هناك كـل ما حصلت عليه مـن موارد في قبرص، وإذا كنت تـرى أنني متملك لها بشكل غير شرعـي فسوف أزودك بالبراهين وأتولى مباشرة عرض المسألـة على المحكمة التابعة لمملكة القدس، أمـا فيما يتعلق بما طلبتـه مني بشأن مـوارد وكالـة قبرص والحكم هناك، إنني لم أحصل قـط على أية موارد، وكذلك لم يحصل أخـي عندما كـان وكيلاً، وذلك بـاستثناء مشـاكل ومتـاعب حكومـة المملكة، والـذي حصل على الموارد هـي الملكـة أليس ــ ابنـة أختي ــ وقـد تصرفت بهذه الموارد حسب مشيئتهـا، أما فيما يتعلق باستحـواذ الوكالـة قانونيـاً حسب تطبيقاتنـا، إذا ما طلبت مني البرهنـة على هذا الحق، فإننـي سوف أزودك بـالبراهين وفقاً لتطبيقـاتنا، وبـوساطـة محكمة مملكـة قبرص، وتأكد أنـه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن إنا لن نفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار المحكمة الجيد والمخلص مني أن أفعله(٦٩)» .

٢٨ : وغضـب الامبراطـور غضبـاً عظيماً ، وأقسـم ، وتهدده وقـال أخيراً:« لقد كنـت قد سمعت مـن قبل عندمـا حكي لي عبر البحـر منذ وقت طويـل مضى بأن كلما تك هي حلـوة جداً، وأنك من أكثـر الناس حكمـة، وبـارع في جملك، لكننـي سـوف أريك أن مهـارتـك وبـراعتك وكلماتك لن تفيد شيئـاً أمام قوتي»، وقد ردّ عليه صـاحب بيروت بطريقة نالت الاعجـاب العظيم من قبل جميع الـذين كانـوا هناك، وخاف رفـاقه خوفاً عظيماً .

٢٩ : وكـان رده كمايلي:« لقـد سمعت يـا مـولاي منـذ وقـت طـويل مضـى ذكـر كلماتي الأدبيـة، وسمعـت أنـا كثيراً ومنـذ وقـت مضى عـن أفـاعيلك، وعنـدمـا فكـرت بالقـدوم إلى هنـا، حـذرني جميع مستشـاري بصـوت واحد مـن الأشيـاء التي تتـولى القيام بها، ومـن الأسـوأ، لكن لم

أرغب في أن أصدقهم جميعاً، ولايمكن القول إنني لم أخف منك كثيراً،ومع ذلك قدمت وأنا متيقظ وحذر، وما زلت على استعداد لأن أتلقى منك السجن أو الموت، على أن أرضى بأن يتمكن أحد من القول أي شيء سيء حولنا، أو يكون هناك ضرر بالنسبة لحاجة ربنا والاستيلاء على الأرض المقدسة، أو أن تعاق خدماتك من خلالي أو من خلال أسرتي، أو من خلال الذين في البلاد حيثما كنت، أو أن تصل الأخبار إلى العالم المسيحي، فيقولون: ألم تعرف؟ لقد ذهب إمبراطور روما عبر البحر، وكان سوف يتمكن من الاستيلاء على كل شيء لولا ما فعله الإيبلينيون، أولئك الخونة فيما وراء البحار الذين أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، لأنهم ثاروا ولم يرغبوا باتباع الامبراطور، ولهذا السبب فقد كل شيء، وهذا كله تماماً الذي رويته لكم قد قلته لمستشاري عندما تركت نيقوسيا لآتي إليكم، وقد جئت مستعداً تماماً لمعاناة كل ما يمكن أن يأتي، في سبيل حب مولانا يسوع المسيح الذي عانى من الآلام ومن الموت من أجلنا، وهو الذي سوف يخلصنا من الموت أو السجن، فأنا أشكره من أجل ذلك، وبه سأظل مرتبطاً دوماً»، وبهذا توقف عن الكلام وأجلس نفسه .

٣٠(١٢٨) : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً وتغير لونه مراراً ، وكرر الناس النظر نحو صاحب بيروت، وكانت كلمات التهديد كثيرة، وتدخل رجال الدين والرجال الجيدين الآخرين للمصالحة بينهما، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل زحزحة صاحب بيروت عما قاله وعما قرر فعله، وصنع الامبراطور عدة طلبات غريبة وأعمال تهديد، وتم الاتفاق بالنهاية، حسبما كان صاحب بيروت قد عرض، وليس أكثر من ذلك أمكن للقوة تحقيقه : وجوب أن يسلم إلى الامبراطور عشرين من أعظم أعيان إقطاعيي قبرص، الذين تعهدوا بأجسادهم وبمقتنياتهم وبممتلكاتهم بأن صاحب بيروت سوف يخدمه، ولسوف يذهب إلى

محكمة مملكة القدس،ويقدم هناك براهينه، وفقط عندما سوف يظهر في المحكمة سوف يجري تحرير الرهائن وإطلاق سراحهم .

٣١ : وطلب الامبراطور منه ولديه : السير بالين والسير بلدوين(٧٠)، وكل ما قاله لم يرتض به مولاي، ولذلك وافق بالقوة على أن يأخذهما الامبراطور، ثم قال الامبراطور مخاطباً صاحب بيروت :« إنني أعرف تمام المعرفة أن بالين هو الأثير إلى قلبك، وبناء عليه إنني ما دمت مستحوذاً عليه أنا مستحوذ عليك»، وأمر الامبراطور باستدعائهما، وقدما على الفور، وأخذ أبوهما بيمين كل واحد منهما وسلمهما إلى الامبراطور قائلاً :« إنني أعهد بهما إليك، وأدعهما بذمة الرب وبذمتك بوساطة هذا الميثاق : أنني حالما أقدم إلى محكمة مملكة القدس مستعداً للبرهنة على حقوقي، سوف يحرران ويطلق سراحهما، وأنك سوف تحتفظ بهما وتحرسهما بشرف، وأنك سوف لن تسبب الضرر لهما أو تعرضهما لأي أذى بالرضا أو بالغضب»، وهنا قال الامبراطور : « وإنني أتسلمهما بذمة إيمان الرب وإيماني، ولسوف يثريان بوساطتي ويتشرفان، إذا أراد الرب»، وبهذا غادر الامبراطور(٧١)، وأمر بوضعهما في داخل أقفاص خشبية (٧٢) واسعة وبشكل بالغ الوحشية، وكان هناك صليب من الحديد قد ربطا إليه، ولذلك لم يكن بإمكانهما تحريك لاأيديهما ولا أرجلهما، وفي أثناء الليل ربط بقية الرجال بالحديد معهم(٧٣) .

٣٢(١٢٩) : وما أن غادر صاحب بيروت المكان، حتى ذهب أعداؤه إلى الامبراطور وقالوا له :« ما الذي فعلته يا مولاي؟ سوف يذهب صاحب بيروت ويشحن القلاع ضدك، ولسوف يثير البلاد كلها، ولن يتمنع عن ذلك بسبب أولاده، ذلك أن معظم الناس يحبونه وسوف يتبعونه، وأفضل نصيحة هي أن تبعث خلفه على الفور، وأن ترسل إليه رسالة لطيفة، وأن تقول له أنه إذا ما فعل ما تطلبه سوف تعيد إليه ولديه، وما أن يأتي تلقي القبض عليه، فالذي يمتلك الشجاعة يمتلك

قطيعه، وبهذه الوسيلة تصبح صاحب قبرص وما من أحد سواك»، وأمر الامبراطور، الذي فعل الكثير من الشرور صدوراً عن إرادته الذاتية ودونما تشجيع، باستدعائه وجلبه، لكن صاحب بيروت كان متيقظاً ومحروساً بشكل جيد من قبل الذين يثق بهم، والذين كانوا معه في اجتماع التشاور، وكان معسكراً خارج المدينة في خيام، وكان هو ورفاقه معهم خيول وسلاح، ولم يكن لدى الامبراطور خيول في المدينة، لكنه امتلك السيطرة على داخل المدينة بفضل العدد الكبير من الرجالة الذي كان لديه .

٣٣ : وعقد صاحب بيروت اجتماعاً وقال إنه يرغب بشحن القلاع وحراسة البلاد لصالح حقوق ورثة الملك هيوج، في حال حدث حادث سوء للملك الذي أخذه الامبراطور وهو متحفظ عليه، ثم إن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت ومعه السير آنسيو دي بري ــ وكان هذان شجاعان جداً ونشيطان ــ قالا له :« لاتفعل هذا يا مولاي، بل اذهب إلى الامبراطور وخذنا معك، ولسوف يخفي كل واحد منا مدية في سوطه، وما أن نمثل أمامه حتى نقتله، وسيكون رجالنا على ظهور خيولهم أمام الباب مسلحين بشكل جيد، وعندما سيكون الامبراطور ميتاً، ما من أحد سوف يتحرك ، وبذلك سوف ننقذ أولاد عمنا»، وغضب صاحب بيروت غضباً شديداً ، وهددهما بالضرب و بالقتل إذا ما تكلما حول ذلك ثانية، وقال إن هذا سوف يعدّ عملاً غير شريف إلى الأبد، ولسوف يصرخ المسيحيون في كل مكان :«لقد قتل هؤلاء الخونة فيما وراء البحار مولاهم»، ثم استطرد يقول معللاً:« إنه إذا ما مات وبقينا نحن أحياء وأنقذنا،سيصبح حقنا باطلاً، ولن يتم مطلقاً تصديق الحق والأخذ به، وهو الآن مولانا(٧٤)، ومهما عمل سوف نحافظ على إخلاصنا وشرفنا» .

٣٤(١٣٠) وعندهاغادر صاحب بيروت عند حلول المساء، وكانت

الضجة كبيرة في معسكره لدى مغادرته، وسمع الامبراطور الضجة، وخاف من ذلك خوفاً عظيماً، ولهذا تخلى عن المنزل الذي كان فيه، وذهب إلى برج الاسبتارية الذي كان حصيناً، وقريباً من سفنه، ووضع هناك الرهائن في السجن، وذهب صاحب بيروت مباشرة من ليماسول إلى نيقوسيا، واحتلها مع الذين رغبوا باللحاق به، وشحن بشكل كبير قلعة عرفت باسم ديودامور(٧٥)، وإليها بعث بالأولاد والنساء العائدين إليه وإلى رفاقه، وبقي هو ورجاله المسلحين في مدينة نيقوسيا، وبعث الامبراطور إلى سورية يطلب جيشه مع خيول وكثير من المرتزقة (٧٦)للقدوم إلى قبرص، وجاء الأمير العجوز صاحب أنطاكية(٧٧)، وصاحب جبلة(٧٨)، وصاحب صيدا(٧٩)، وعددكبير آخر من الرجال، جاءوا إلى الامبراطور ووصلوه في ليماسول، وفي الوقت الذي كان فيه هناك، كان السير عموري برلياس وجماعته معسكرين في البيت الذي كان سجناً للرهائن، ويحكى أنه أساء إليهم كثيراً وألحق بهم الكثير من الأذى .

٣٥(١٣١) : وعندما تلقى الامبراطور فردريك ما يكفي من نجدات، ركب وزحف مباشرة إلى نيقوسيا(٨٠)، وأشار المستشارون التابعون لصاحب بيروت عليه أن بإمكانه التصدي له ومنازلته، لكن رجاله الجيدين قالوا إنه لن يفعل ذلك، لأنه لن يقاتل بمشيئة الرب ضد مولاه، وهو لم يرغب قط بالقتال ضده إذا ما أمكنه تجنب ذلك، لأن من عادته البقاء دوماً مستقيماً نحوه عن طواعية، ولقد قام بهذا العمل وهو آسف، ومادام قد بدأ ذلك فلسوف ينهيه، وأعطاه مولانا نعماً فائضة من المشاعر والحكمة والشجاعة والشرف، وأظهر نحوه حبه أكثر من أي إنسان في أيامه، أومثيله في الثروة، وقام الإيبليني بتسليم نيقوسيا إلى الامبراطور وذهب إلى ديودامور، التي كان قد شحنها، ولم يتجرأ الامبراطور على اللحاق به، بل بقي لوقت طويل في نيقوسيا مع عدد كبير من الرجال.

٣٦(١٣٢) واقترب الشتاء وتلقى الامبراطور أخباراً من بلاده بأن البابا غريغوري والملك جون صاحب القدس كانا يشنان الحرب ضده في أبوليا(٨١)، ولهذا كان خائفاً جداً ،وبادر إلى الإسراع للذهاب إلى سورية، ليعقد هدنة مع المسلمين حتى يمكنه العودةإلى بلاده، ولهذا السبب سارع إلى عرض التصالح مع صاحب بيروت، وهكذا جرت المباحثات وتقدمت بوساطة رجال الدين وآخرين بغية الوصول إلى اتفاقية، وكانت المحصلة أن أقسم الامبراطور وجميع باروناته لصاحب بيروت أنه سوف يبعث إليه على الفور ولديه سالمين وصحيحين في الجسد والأطراف، ولسوف يحتفظ بالسلام معه، ولن يلحق الأذى به أو بشعبه ولن يغرمهم، إذا لم يكن ذلك بموجب أمر صادر عن المحكمتين، كما أنه لن يحمل في نفسه أي حقد تجاه هذه الأمور التي انقضت، ولسوف يمكن الملك هنري شخصياً من تسلم القلاع والمملكة، وبما أن الملك ما يزال طفلاً، فإنه سوف يعين واحداً من أتباعه(هنري) ليتولى حراسة القلاع والمملكة حتى يصل الملك إلى السن التي تؤهله للحكم .

٣٧ : وأقسم صاحب بيروت ورجاله أنهم سوف يسلمون قلعة ديودامور بناء على أوامر ملك قبرص المتقدم الذكر، وأنهم سوف يذهبون مع الامبراطور وسوف يخدمونه طيلة الوقت الذي سيبقى فيه في سورية على حسابهم الشخصي، وهو لن يتحمل أي أذى نحوه أو نحو مؤيديه فيما يتعلق بجميع الأشياء التي مضت، وأصر الامبراطور على وجوب اعترافهم بأن الوكالة عائدة إليه، المطلب الذي ردوا عليه بعدم الموافقة، حتى لو فقدوا رؤوسهم، لأنه فيما يتعلق بالوكالة، فهم قد كانوا رجال الملكة أليس، لكنهم لن يترددوا في إقسام يمين الولاء إلى الامبراطور لأنه المولى الرئيسي لمولاهم الملك هنري، وإنهم سوف يقسمون هذا القسم نفسه بموجب الميثاق التالي : إذا كان قد تقرر في الامتيازات التي وردت في المواثيق التي أقيمت فيما بين والد الامبراطور والملك(عموري) هنري،

بأنه يتوجب على رجال الملك إقسام يمين الولاء، فإنهم سوف يتمسكون بأداء القسم، لكن إذا كان هذا لم يرد بين الامتيازات، فوقتها ينبغي تحليلهم من أداء ذلك (٨٢)، وتعهد الداوية والاسبتارية وجميع البارونات والأعيان من كلا الجانبين بالحفاظ شخصياً على هذا السلام، وسلمت قلعة ديودامور وبقية الحصون الأخرى في قبرص إلى الملك، وقام هذا بناء على أوامر الامبراطور وخوفاً منه بتسليمهم جميعاً إلى رجاله الذين كانوا من حزب الامبراطور (٨٣).

٣٨ (١٣٣): وذهب الامبراطور فردريك وأتباعه فوراً إلى فيما غوستا، للاقلاع من هناك (٨٤)، وقدم إليه إلى هناك اسطوله من ليماسول، وأرسل من هناك إلى صاحب بيروت ولديه، اللذان عانيا طويلاً من السجن على اليابسة وفي داخل السفن في البحر، وكانا في حالة مزرية جداً، حتى كان من المؤلم النظر إليهما، ومع ذلك استقبل الامبراطور السيد بالين في بيته وعرض عليه وأعطاه كثيراً، وهو الذي كان شاباً عظيم الشجاعة وفارساً، ونشيطاً وكريماً، وبارعاً، ومقبولاً جداً لدى جميع الناس الذين كانوا على هذا الجانب من البحر، قام بخدمة الامبراطور عن طواعية وبأدب إلى حد أنه كان مسروراً منه، وكان الابن الآخر لمولاي صاحب بيروت اسمه جون (٨٥)، وكان سيداً، وقد احتفظ به الامبراطور طيلة وجوده في سورية، وقال بأنه سوف يعطيه فوغيا Foggia التي هي في أبوليا، ولهذا السبب عرف باسم جون أوف فوغيا(٨٦).

٣٩ (١٣٤): وأقلع الامبراطور مع اسطوله من فيماغوستا في إحدى الأمسيات عند حلول الظلام (٨٧)، وهرب منه في تلك الليلة نفسها أمير أنطاكية العجوز، وتركه على ظهر سفينة حربية حيث وصل إلى إحدى قلاعه التي عرفت باسم نفين (٨٨) Nefin، ثم إنه قدم الشكر للرب على أنه نجا من الامبراطور، لأنه كان قد قدم إلى قبرص بعدما عقد صاحب بيروت السلم معه (٨٩)، وكان الامبراطور قد طلب من

الأمير بأن يأمر جميع أتباعه في أنطاكية وطرابلس أن يقسموا يمين الولاء له، مثلما فعل الذين كانوا في قبرص، وقد عدّ الأمير هذا كأنه قد مات وسلب ميراثه، ولهذا تظاهر بالمرض والوجع وكان دوماً يصرخ « آه— آه— آه— آه»، وقد فعل ذلك بشكل مؤثر حتى تمكن من المغادرة حسبما سمعت، لكنه ما أن وصل إلى نفين حتى تعافى.

٤٠ (١٣٥): ووصل الامبراطور في سنة ١٢٢٩ (١٢٢٨) إلى سورية مع اسطوله كله ووصل الملك معه، وجميع قبارصته معه، وتوجه صاحب بيروت إلى بيروت، حيث استقبل هناك بسرور عظيم، لأنه ما من أمير قد أحبه رجاله مثلما أحبوه، وقد بقي هناك لمدة يوم واحد، ثم لحق على الفور بالامبراطور، والتقى به في صور، واستقبل الامبراطور استقبالاً جيداً في سورية، وقدم له الجميع الولاء، وغادر مدينة صور ومضى إلى مدينة عكا، وقد استقبل هناك بترحاب كبير (٩٠)، ودخل اسطوله الذي تألف من سبعين غليونا وسفينة إلى ميناء عكا، واتخذ هو لنفسه مقراً في القلعة، ثم أمر بجمع الأتباع الاقطاعيين وطلب منهم أداء يمين الولاء له (٩١) بمثابة الوكيل، لأنه كان لديه ولداً صغيراً اسمه كونراد، وهذا كان الوريث الشرعي لمملكة القدس من خلال أمه التي كانت متوفاه، وترك الامبراطور وجميع رجال سورية عكا، وذهبوا إلى يافا (٩٢)، وعقدوا هناك اتفاق هدنة مع الكامل (٩٣)، الذي كان سلطان القاهرة ودمشق (٩٤)، وكان مستولياً على القدس، وعلى جميع البلاد، وبموجب هذه الاتفاقية كان سيسلم القدس والناصرة واللد إلى الامبراطور (٩٥) .

٤١(١٣٦): وفي وسط هذه الأحداث، في هذه السنة نفسها (١٢٢٩) بعث الامبراطور بالكونت ستيفن صاحب البترون (٩٦) إلى قبرص ومعه اللومبارديين الآخرين، ليتولى الاستيلاء على جميع الحصون وعلى موارد التاج ليتولى استخدامها، وقد قال بأنه الوكيل، وأن تلك كانت حقوقه، وكان القبارصة خائفين جداً وكذلك نساؤهم وأطفالهم وقد وضعوا

أنفسهم تحت رعـاية رجـال الـدين حيثما استطـاعوا، وهـرب بعضهم إلى خـارج قبرص، وخـاصـة السير جـون دي إيبلين (٩٧) — الـذي أصبح فيما بعد صاحباً ليـافا، وقد كان في ذلك الوقت طفـلاً— وقد هرب ومعه أختـه مع آخريـن من الاسر النبيلـة، وحدث ذلـك في قلب الشتاء، وقـد واجهوا أحـوالاً جويـة صعبة حتى أنهم نجـوا بصعوبة كبيرة مـن الغرق، وقد وصلوا بعـون الرب أخيراً إلى طرطوس، واستـولى الامبراطور الآن على قبرص، وكان القبارصـة في جيشه في غاية الانزعاج، ولـو وافقهم صاحب بيروت لتجمعوا واختطفوا الملك الشاب هنري ولتخلوا عن الامبراطور.

٤٢ (١٣٧): وبات الامبراطـور مكروهاً من قبل جميع النـاس في عكا، وكان مبغوضاً بشكل خاص من قبـل الداوية (٩٨)، وكان هناك في ذلك الـوقت مقدم الـداويـة الأكثر شجـاعة، الأخ بيتر دي مـونتاغيـو (٩٩)، الذي كان باسلاً جـداً ونبيلاً، وعظيم الإقدام، وحكيماً (١٠٠) أيضاً كان مقدم فرسـان التيوتون (١٠١)، ولم يكن شعب السهـل (١٠٢)ميالاً نحو الامبراطـور، وقـد اقترف الامبراطـور أعمالاً كثيرة بـدت شريـرة، واحتفـظ ببعض الغلايين مستنفـرة تحت السلاح ومجاذيفها في أماكنهـا، وفعل ذلك حتى في الشتـاء، وقد قـال بعض الناس بـأنه رغب في القـاء القبض على صـاحـب بيروت، وعلى أولاده، وعلى السير آنسيـو دي بـري، وعلى بقيـة رفاقـه، وعلى مقدم الداويـة وعلى أناس آخريـن، وأنه كان ينـوي إرسالهم إلى أبوليا، وقـالوا بأنه رغب في احدى المناسبـات بقتلهم أثناء اجتماع دعا إليه وجمعهـم فيه، لكنهم أصبحـوا مدركين لنوايـاه، وجاءوا بقـوة عظيمة لذلك لم يتجـرأ أن يحاول قتلهم، ومهما يكن من أمـر، لقد عقد هـدنة مع المسلمين، حسبما رغب، وذهب إلى القدس (١٠٣)، وتوجه من هناك إلى عكا، ولم يتخل صاحـب بيروت عنه، مع أنه كان هناك مـن نصحه مراراً بالتخلي عنه، لكنه لم يرغب بفعل ذلك.

٤٣ (١٣٨): وجمع الامبراطور رجاله في عكا، وأمر باحتشاد جميع أهل

عكا، وكان هناك عـدد كبير من البيازنة، الذين كانوا مـؤيدين له وميالين كثيراً إليه، وهنـاك خطب فيهم وأبلغهم بما رغـب به، واشتكى في خطـابه كثيراً من الداوية.

وقـام بمحـاصرة بيت الـداويـة (١٠٤)، وتضرر بيت الـداويـة أضراراً كبيرة، لأن الدير كـان كله بالخارج، غير أن كثيراً من الناس تقـاطروا عليه بحـراً وبراً، وإنني لا أعـرف كم دام الحصـار، لكنه غـادره بوضع شريـر جـداً (١٠٥)، وأعـد الامبراطـور العـدة بشكل سري لعبـوره، ودخـل إلى غليونه في اليوم الأول من شهر أيـار عند الفجر، دون أن يعرف ذلك أحد من النـاس، وحين دخـل إلى الغليـون كان ذلـك أمـام شـارع الجزارين، وحـدث هناك أن الجزاريـن والمسنين من أهل ذلـك الشارع الـذين كـان وضعهم سيء جـداً، أنهم ركضـوا إلى جـانبه ورمـوه بـالفضـلات وبقطع اللحم بشكل مهين جداً.

٤٤: وسمع صـاحـب بيروت والسير يودس دي مـونتبليـارد (١٠٦)، ضجة الكـلام حول هذا، فبـادرا مسرعين، وأبعدا الناس بـالضربات، أي الناس الذين كـانوا يرمون هذه الأشياء عليه، وصرخـا إليه من جانب البر حيث كـانا إلى حيث كان في الغليـون بأنهما يدعـانه في رعايـة الرب، ورد الامبراطور بصوت منخفـض جداً بأنه لايعرف هل هـذا سيكون جيداً أم سيئاً، وقال بأنـه تارك في مكانه وكيلاً صـاحب صيدا (١٠٧)، وغارنيير الألماني (١٠٨)، وكـان الامبراطـور قد جهـز قلعـة صـور بشكل جيـد، وأعطـاها إلى صـاحب صيدا ليتـولى إمـرتها، وجعل الأمور تظهـر أنه قـد وضع ثقـة عظيمـة بـه، وقـد اصطحـب الامبراطـور الملك هنـري ملـك قبرص معه.

٤٥ (١٣٩): وهكـذا غـادر الامبراطـور عكـا، مكـروهـا، وملعـونـا، ومـرزولاً، ووصل إلى قبرص، وحـل في ليماسـول، ونصـب هنـاك الملـك المتقدم الذكر، أي الملـك هنري، وأعطاه زوجة واحدة من قريبـاته، كانت

ابنة المركيز أوف مونتفرات (١٠٩)، وعقد هناك اتفاقات نهائية مع الوكلاء الخمسة ، الذين سمعت بأسمائهم من قبل، والذين كانوا من حزبه، وقد باعهم وكالة قبرص والبلاد بمبلغ عشرة آلاف مارك، وذلك حتى يصل ملك قبرص المتقدم الذكر إلى سن الرشد (١١٠)، وجعلهم يقسمون أنهم لن يمكنوا صاحب بيروت والمتحزبين معه من العود ة إلى قبرص، وأمرهم بوجوب طردهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، وقد قبلوا بهذا عن طواعية من الامبراطور، وبناء عليه حوّل إليهم مرتزقة وألمان، وفلمنكيين، ولومبادر توجب عليهم أن يدفعوا لهم، كما التمسوا أيضاً اكتراء بعض المرتزقة من عكا ومن أماكن أخرى، وقام بعض الرجال الذين كانوا من رجال الملك بالالتحاق بهم ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، بحكم وجود الملك هنري مع الوكلاء، ولأنهم أنفسهم رغبوا بالعودة إلى بيوتهم، لكن القلاع لم تستسلم إليهم إلى أن يدفعوا المال، وسافر الامبراطور فردريك عبر البحر وترك في مكانه رجالاً لتسلم المال وليسلموهم القلاع (١١١).

٤٦ (١٤٠): وكان فيليب دي نوفار وقتذاك في قبرص يقوم بأشغاله الخاصة (١١٢)، وأمره الوكلاء الخمسة بشكل سري، وذلك بعد ما بحثوا عنه في أثناء الليل ورجوه وطلبوا منه بكل مظاهر الصداقة، أن يسعى لإقامة سلام بينهم وبين صاحب بيروت، وقالوا بأن التسوية التي صنعوها مع الامبراطور كانت فقط من أجل استسلام الملك والبلاد وتخليصهم من يديه، وأنهم ما أن يتسلموا القلاع حتى سيفعلوا كل ما يرغب به صاحب بيروت (١١٣).

واتفق فيليب دي نوفار مع الوكلاء الخمسة أنه سوف يقوم بكل سرور بهذه المهمة، وذلك لمعرفته بحكمة مولاه وعفوه، واشترط عليهم أن يقسموا له على الإنجيل المقدس، أنه إذا لم يتمكن من عقد السلام، سوف يأخذونه هو وآل بيته وجميع مقتنياته بأمن وسلام إلى بيروت أو إلى

عكا، وناضل فيليب دي نوفار في سبيل السلام ووجد في مولاه كل ما رغب به.

٤٧: وفرض الوكلاء الخمسة الضرائب على فقراء الناس في قبرص وسرقوهم كثيراً حتى تمكنوا من دفع المال وتسلم القلاع (١١٤)، وكان لديهم في ذلك الحين عدد كبير من الرجال، حتى أنهم عدّوا أنفسهم أقوياء جداً (١١٥)، ومن ثم وافقوا وقادوهم بحماقة نحو مايلي:

لقد أصبحوا متعجرفين واعتقدوا أنهم سوف يستحوذون على البلاد ويدافعون عنها، ويتغلبون على مولاي صاحب بيروت وعلى حزبه، ومع هذا تابعوا الحديث بشكل سري عن السلام مع فيليب، ثم أمروا شعب البلاد بالاجتماع في بلاط الملك، وذهب واحد منهم شخصياً لإحضار فيليب ووضع يديه حول عنقه وترجاه أن يذهب إلى الملك، لأنهم رغبوا في عقد اجتماع خاص معه، وقد ذهب عن طواعية، لأنه وثق وثوقاً كبيراً بالقسم الذي أدوه إليه.

٤٨: وعندما دخل فيليب دي نوفار إلى بلاط الملك وجد الأبواب محروسة بكثافة من قبل رجال من أتباع بيوت الوكلاء الخمسة، وقد حفظوا الأبواب بشدة حيث لم يسمحوا لأحد بالجواز إلى الخارج، وكان فيليب خائفاً لكنه لم يظهر أدنى علامة على ذلك، وعندما اجتمع الجميع وقف واحد من الوكلاء، وكان واحداً خطيباً مفوهاً، واسمه وليم ريفت، وقد تكلم لمدة طويلة بكلمات جميلة، وقد قال بين أشياء بأن صاحب بيروت قد فقد بحماقة الملك والبلاد، وأنهم (أي الوكلاء) قد استردوا بعقلانية كلاهما الواحد ثم الآخر، وقد اشتروا الوكالة، ولهذا السبب إنهم يطلبون من شعب المكان أن يقسموا لهم على الاحترام، وأن يقفوا إلى جانبهم وأن يحافظوا عليهم بمثابة وكلاء لهم حتى يصل الملك إلى سن الرشد، وكان الملك في أيديهم وكان خائفاً جداً، وقد تكلم الملك بصوت منخفض، وغالباً مانظر نحو فيليب.

٤٩: وجلب على الفور الإنجيل المقدس إلى ذلك المكان، وقال السير عموري برلياس إلى فيليب دي نوفار «إذهب أنت أولا قبل الجميع وأقسم، ذلك أننا نرغب بشكل خاص أن تكون أنت الأول»، وانتصب فيليب قائماً وقال: «تحدث إلي ياسيد أولاً على انفراد ، أنت ورفاقك»، وقد ردوا عليه جميعاً وقال الخمسة: «بعون الرب، لن نفعل ذلك، لأنه يتوجب علينا أن نفعل كثيراً جداً، إذا ماتشاورنا مع كل واحد من هؤلاء الذين سوف يقسمون، وبذلك ما من شيء سوف ينجز، لكن أقسم ، ولسوف نصنع أشياء أكثر لك مماقدمه أولئك الذين خدمتهم حتى الآن، وأي واحد منا تريده سوف يعطيك إقطاعاً لك ولورثتك، ولسوف ندفع كل ديونك (١١٦)».

٥٠: ورد فيليب قائلاً: «إنني عظيم السرور، أنكم عرضتم علي هذا العطاء العظيم على مسامع هذا العدد الكبير من الناس، وتشريفكم لي دليل على تقديركم العظيم، وأنا أشكركم على ذلك وافر الشكر، لكنني غير قادر على فعل ما سألتموني أن أفعله، لأنني رجل تابع للملكة أليس بموجب وكالتها، وإذا ما وافقت وأقسمت على عدكم وكلاء، عندها أكون قد خرقت تعهداتي»، وعندها صرخوا بصوت واحد: «ليس لهذا السبب إنك ترفض، بل لأنك لاترغب في أن تكون ضد صاحب بيروت»، وقال فيليب: «إنني بمشيئة من الرب، لن أكون ضد صاحب بيروت، لأنني أحبه وأحب أولاده أكثر من أي جماعة أخرى في العالم»، وهنا قال هيوج صاحب جبلة: «هل سمعتم ماقاله؟ إنني أقترح أن نقوم بشنقه»، ورد فيليب على هذا بقوله إنه لايتفق مع ماقاله السير هيوج، وكان والده السير برترانـد قد تكلم مرارا بشكل أكثر عقلانية، ثم إنهم صرخوا جميعاً، وقال واحد منهم: «خذوه» وقال آخر «اقتلوه الآن على الفور».

٥١— وازداد اضطراب فيليب نحو هذا وقلقه، ويئس من حياته،

وجثا أمام الملك وكرر على مسامعه العهد واليمين الذي قطعه الوكلاء الخمسة معه، وقدم ضماناته وعرض أن يتبارز —وفقا لقرار المحكمة— شخصياً ضد واحد من الخمسة، وذلك تماشياً مع ماادعاه، وقام عدد من أتباعهم، ممن كانوا فرساناً، بتقديم ضماناتهم ضد فيليب، لكنه رفضهم جميعاً بسبب ماقاله، وأصر طوال الوقت على طلب منازلة واحد من الخمسة، ذلك أنه قال بأنه كان من المؤكد معادلاً لهم، وأنه من السهل عليه البرهنة على ذلك، بكفالة عدد من الرجال الجيدين من بلاده الموجودين في قبرص وسورية، وقد أنكر كل واحد منهم ماقاله، لكن مامن واحد منهم عرض ضماناته للمبارزة، وبناء عليه اعتقلوه، ووضعوه تحت الحراسة في واحد من أماكن القصر، وتولى حراسته فرسان حملوا بأيديهم السيوف مجردة، وأعجب الناس كثيراً بماقاله فيليب وبمافعله، وأمر الوكلاء بإحضار قفص كبير، وأمروا بوضعه هناك، لحمله به إلى قلعة ديودامور، وفي الوقت نفسه حرسوه في القصر بشدة طوال الليل، وأدى بقية الناس اليمين للوكلاء.

٥٢— واجتمع الوكلاء الخمسة على انفراد وتشاوروا، وقالوا: «لقد طلب هذا الرجل المحاكمة في المحكمة، وإذا ماأخذناه بدون ذلك، سيكون ذلك خرقاً، لكن دعونا نطلب منه تقديم تعهدات وضمانات بمبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة بأنه سوف يمثل في اليوم التالي في المحكمة، بالشكل الذي هو عليه الآن، ودعونا نقول له إنه إذا ماأقسم هكذا فسوف يحاكم بالمحكمة، وعندما سوف يغادر من هنا دعونا نقتله بحكم أنه عدو خطير لنا، ولنفعل ذلك الليلة»، وهكذا بعدما أعدوا ماأرادوه، طلبوا التعهدات منه، ورد فيليب دي نوفار أنه لايحتاج إلى تعهد وضمانة، وبحكم كونه تابعاً اقطاعياً هو لايحتاج إلى تقديم أي شيء من هذا القبيل، ثم إن سمعته وصدقه واقطاعه ضمانة له، فأخبروه بأنهم سوف يؤمنون له حفظاً جيداً لسلامته، وعرضوا عليه أن يضمنوه

هم أنفسهم، غير أنه شكرهم، وتمنى أنهم سوف يقدمون مثل هذه الخدمة له عندما سيكون بحاجةإليها.

٥٣ (١٥١)— وماأن غادرهم فيليب دي نوفار حتى توجه مباشرة إلى مقر الاسبتارية، واستطاع أن يتدبر في تلك الليلة نفسها جمع مائة وخمسين رجلاً مسلحاً، وقد وجد هناك نساء وأطفال الذين كانوا في سورية مع صاحب بيروت، ولولا أن فيليب قدم إلى هناك لقام الوكلاء الخمسة يدخول المكان في اليوم التالي، ولتولوا أسره(١١٧)، وهاجموا في تلك الليلة نفسها البيت الذي كان يقيم به من قبل واستولوا عليه، وقد وجدوا فراشه معمولاً، فطعنوا الغطاء برماح كثيرة وبسهام، وكان هناك رجلان يتوليان حراسة البيت، وقد قتل واحد منهما، وأصيب الثاني بجراحة بالغة.

٥٤ (١٤٢)— واستولى الوكلاء الخمسة في اليوم التالي على جميع اقطاعيات مولاي صاحب بيروت واقطاعيات رفاقه، وتدبر فيليب ضخ الماء من أحد الصهاريج وكان موجوداً داخل برج الاسبتارية، وبذلك تم صنع الكثير من الكعك، وشحن البرج بالمؤن وسلحه بأدوات الرمي، وعندما علم الوكلاء الخمسة بأن فيليب كان موجوداً هناك، حاصروا المكان وشددوا الحراسة من حوله ليلاً ونهاراً حتى لايتمكن من الخروج منه، ورغب فيليب دي نوفار بالإخبار بما يجري ولاسيما إعلام مولاي بالين دي إيبلين، الذي كان رفيقه، وعندما شرع بكتابة الرسائل، تولدت لديه الرغبة أن يكتبها شعراً، وبما أن السير عموري برلياس كان الأكثر شراً من البقية، فقد أشار إليه باسم رينارد، ولأنه في جميع قصص رينارد غريمبرت Grimbert ، هو الغرير، وهو ابن عمه فقد دعا عموري صاحب بيسان باسم غريمبرت، ولأن السير هيوج صاحب جبلة له فم ملوي، ويبدو دوماً وكأنه مكشر، فقد دعاه فيليب «القرد».

٥٥ (١٤٣)— وهاهو الكتاب شعراً، الذي أرسله السير فيليب دي

نوفـار، عندما كان محتجـزاً في مقر فرسان القـديس يوحنا في نيقـوسيا، إلى السير بالين دي إيبلين، الذي كان موجوداً في عكا:

أكثر من مائة ألف تحية يرسل إليك،

أيها السيد اللطيف والصديق، والذي هو الآن أخ جديد.

لسنا الآن بصدد الصليب الأبيض، فلدينا الكثير لنعمله

ذلك أنه قد لايتمكن أن يغني هذه السنة لساعات أو أن يقوم بالقداس كاملاً.

أيها الصديق اللطيف، أرضك الآن تمثل اسبانيا،

هناك خمسة وكلاء في جمع واحد فوق سهلها.

لقد أظهروا حباً عظيماً نحوي، وناضلوا في سبيل كسبي

إلى جانبهم، لكنني رفضتهم. بازدراء

وبغضب، وبدون محاكمة قانونية، بل بالقسر

ألقوا القبض علي، ورموني بالأغلال، ولزيادة آلامي

أبدوا نحوي تلك الليلة كل الأعمال الوحشية:

لقد حرسوا الأبواب بقوة، ومامن أحد أمكنه المرور خلال السلاسل.

وصاحب الوجه الحاد أقامهم هناك، وهو الذي كان متشوقاً

ليفدي بنفسه المملكة كلها.

نا لم أر تلك الليلة أي حيوان متوحش

مثل الذي أدخل رأسه إلى الحقل. وإذا حدث

بمشيئة الرب، وزالت هذه المحنة من حوله
سيقيم عيداً كل سنة لجميع كبار القديسين

وهكذا وضعت خلال تلك الليلة في المحكمة:
الكلام الطيب والتماس العدالة لم يكسبني شيئاً
وعلى الرغم مماقلته، حكموني بلا حق ولاقانون
في داخل القفص أوثقني الخونة بشدة
ثم أرادوا قتلي خيانة أثناء الليل
لكنني أنذرت من قبل واحد، لم يعبأ أبداً بالذي لن
يرضى، وقدم لي نصيحة مخلصة في محنتي.

إنني الآن متدثر برداء من أردية الاسبتارية
وإنني لواثق بالرب، في أنني سوف أخرج هذه السنة من هذا الضيق
وعارف أن بالين سوف يأتي بين بني قومنا
وآنسيو، صاحب الأنف المفلطح، أستدعيه هو الآخر

إن الذي وقف فيما بين الحواجز وبين حصانه
قد حاصرني، وضربني، في داخل مقر الاسبتارية بالقوة.

لو أن الرب ترك الشقي يقتل، لتوقف مصدر
الكثير من المآسي التي وقعت في قبرص

لو أنهم عوضاً عن ذلك اتفقوا مع آنسيو صاحب الأنف المفلطح
عندما رمى بنفسه من على ظهر حصانه فوق رأسه
لكان الجميع قد قال: «لك الشكر من الرب والمنة»
ومن ثم تفوهوا غناء بتبريكاته النهائية

★★★

بالين، لاتنس السجن والأغلال طويلاً
السرور قد يخفي ذلك، لكن الأمر معروفاً من قبل حشد كبير

لئن اعتقلوك، لاتأبه بذلك ولاتستح منه
لأن الذي أخذك، اعتقل ملكاً وكونتا سواء
غير أن الذي يزعجني و يؤلمني أنهم جميعا يقولون:
إن ذلك قد عمله، الذي هو عار بالنسبة للبشرية؛
ويظهر هذا كم هو يخشاك ويخاف من اسمك.

تذكر يابالين أنه قد حدث في أيامك
أن الذي دفع الفدية ليخرج من الميدان يحكمك الآن كعبد.

يتوجب عليك استدعاء مولاي صاحب نابلس
وخالك الطيب، فلعله سوف يفيدك كثيراً
بحق الرب ادع الفيليبين صاحبي نابلس ويبنى
وخال والدك، مولاي بلدوين اللطيف
الذي لم يحن رأسه لانسان حي، ولم يخفض ذقنه مطلقاً،
ولئن تخاذلت أمام خمسة من الأشرار وتوانيت
ليتولى الرب الذي عاقب قاين ودمره لذنبه
تدميرك ومعاقبتك، مالم تنتصر.
من أجل الرب، ضع حب شؤون عكا جانباً
أنت والسير بدغر، الذي ممجداً ارتدى ثوب النمر
من أجل ثعلب خسيس رماه المهر ولم يستطع ركوبه
والذي يتحرك هنا، حتى أن اللومبارد سايروا هذا الاتجاه....
وإذا كنت تحب النساء، فقد أرادا أسرهن
بوساطة الحصار، كل من رينارد وإلى جانبه غرمبيرت،
الذي نشر أمام مقر الاسبتارية علمهم عريضاً.
وقد راقبنا، طوال الليل، وهم مسلحون بنشابهم ورماحهم
ملاك الأراضي، والعدل قد حرمونا وأنكروه علينا
والسيدات وواحد لومباردي فقط في الداخل
وواحد جبان وآخر رعديد، كيف يمكنك التعايش مع هذا؟

لدى رؤيتهما، تذكرت، والرب هو مرشدي،
بقلب محترق غداً بعد عيد الفصح
فكل واحد جعل نفسه ملكاً، لكنه واحد بين أربعة
عفوك يارب، إنها لعبة الأطفال في الجري والاختباء
ملك في يوم، وفي الصباح التالي، كل واحد تجارته بائرة.
أنا بحاجة للضحك لدى رؤيتهم في الوكالة:
هيوج صاحب الفم المكشر، الذي تنكر لوالديه،
ووليم دي ريفت، الذي يرى في نفسه حكيماً
وريناردِ، الذي امتلك الدهاء ليتخلص من المبارزة
وعموري وجوفيان اللذان من أصل مختلف
وإذا ماعرفتهم جميعاً، لن يكون أحد أكثر منك غضباً
وإذا ماغنيت أو نظمت حولهم، فهذا ليس عملاً ساخطاً:
إنني عندليب، وقد وضعوني داخل قفص
ينبغي ألا تلومني إذا لم أضع بشكل جيد تماماً
الأوزان الشعرية، ولم أصقل كل بيت منه
وإذا كنت مسجوناً، إنهاء الأغنية هي غايتي
بشعر دوبيت أو على الأقل بشعر أبيات منفردة

٥٦ (١٤٤)— وتلقي هذا الشعر واستقبل في عكا ببهجة عظيمة، وصرخ الجميع: «دعونا نذهب على الفور لإنقاذ السيدات واللومباردي» (١١٨)، وأعدوا أنفسهم بكل سرعة، وكان هناك كثير من الرجال

الجيدين والسفن الممتازة، وقدم صاحب بيروت جميع التجهيزات للسفن وللسيرجندية، كما وجهز الفرسان وأعطى الجميع كل مايحتاجونه، وقد عبروا البحر ووصلوا إلى كاستري (١١٩) Castrie ، وقاوم الوكلاء الخمسة بشدة عملية الاستيلاء على الميناء، ومع هذا تم الاستيلاء عليه بالقوة، وتراجع الوكلاء الخمسة وعادوا إلى نيقوسيا، حيث كانوا واضعين الملك تحت الحراسة، وبعث صاحب بيروت والناس الذين معه برسائل لطيفة وودودة إلى الملك، لابل حتى الى الوكلاء الخمسة، قائلين بأنهم قدموا من خدمة الرب (١٢٠)، وأنهم يرغبون بالعودة إلى منازلهم واقطاعياتهم، وأنهم كانوا على استعداد لعمل كل من العمل الصحيح ولفرض حقوقهم، لكن الوكلاء الخمسة لم يتنازلوا بالرد.

٥٧ (١٤٥)— وركب صاحب بيروت وصحبه على تعبئة وزحفوا بصفوف متراصة حتى وصلوا إلى أمام نيقوسيا، وخرج الوكلاء الخمسة من المدينة وأخرجوا معهم شعب المدينة بالقوة، وكان معهم جميع التيركوبليه (١٢١) والمرتزقة، وهكذا تفوقوا عددياً بشكل كبير على قوات صاحب بيروت، ووضع رجال الدين أنفسهم بين الفريقين بغية المصالحة، لكن ذلك لم يفد، وقام قادة الأرتال بتقدير بعضهم بعضاً، واستطلعوا قواتهم من هذا الجانب ومن الجانب المقابل، ووضع كل منهم نفسه أمام الذين كرههم أكثر، وهكذا تقدموا جميعاً، وكانت المعركة هي الأسوأ والأشد قسوة بشكل مطلق مما وقع على هذا الجانب من البحر، وكان عدد الفرسان الذين سقطوا هم وخيولهم كبيراً وكذلك الناس الذين قتلوا، وجرت المعركة في أرض محروثة، وكانت هناك ريح غربية شديدة الهبوب، وكان الغبار كثيفاً حتى أن مامن شيء كان يمكن أن يرى، وقتل في هذه المعركة السير جوفيان العجوز صاحب قيسارية، الذي كان قسطلان قبرص، وابن ختن مولاي صاحب بيروت (١٢٢)، وقتل أيضاً السير جيرارد دي مونتاغيو، الذي كان ابن أخ لكل من مقدمي الاسبتارية

والداوية، ولـرئيس أساقفة قبرص يـوستوريو Eustorgue ، لأن حصانه تمدد فوق جسده لمدة طويلة(١٢٣).

٥٨— وقـام أولاد مـولاي صـاحـب بيروت في هـذه المعـركـة بـأعمال مـدهشـة في القتـال، وأنجـز فـوق الجميع السير بـالين روائع، وانتخـب الـوكلاء الخمسـة خمسة وعشريـن فارسـاً، كـانوا هم الأعظـم نشاطـاً بين رجالاتهم ليحـاولوا قتل مـولاي صاحـب بيروت، وشطر مولاي صـاحب بيروت فم واحـد منهم، لأنه لم يكن لـديه واقية وجـه مثبتة على خـوذته، وبضربته لـه رماه أرضاً مقتولاً، وخـلال المبارزة نفسها سقط فـرس مولاي صـاحب بيروت في الخنـدق، وارتدى الـوكـلاء الخمسـة قلانـس مذهبـة ضخمة فـوق خوذهم ليتميزوا بها، ومع هـذا قهروا وهزموا بمشيئـة الرب، ونجا جميع الوكلاء الخمسة، وفروا أولاً إلى عنـد هيوج صاحب جبلة الذي قاد قوات المؤخرة.

٥٩— وعنـدما كـانت الهزيمة قـائمـة وكذلك الفـرار لبعض الـوقت وانجلى الغبـار، و بينما كان السير بـالين دي ايبلين يقـوم بأعمال المطـاردة بعيداً، وجد مـولاي صاحب بيروت نفسه وحيداً في ميدان المعـركة، ومعه لست أدري كـم من النبالـة على أقدامهـم، و كان أمـامه في الميـدان من الأعداء مـا لايقل عن خمسة عشر فارسـاً، و كانوا هم الأفضـل و الذين نشطوا في القتـال، و عندما انجلى الغبار عـرفوه و عرفهم، و عنـدما رأى صاحب بيروت أنـه كان وحيداً، ترجل ودخل مـن خلال باب صغير إلى سـاحة حيث كـانت هنـاك كنيسة صغيرة، و ذهب سيرجنـديته معـه، و هكذا دافع عن نفسه بقـدر الإمكان و معه سيرجنديته، و طعنوا بـالرماح الذين اقتربوا من الخارج لتدمير الجدران وشق طريق نحو الداخل .

٦٠ : و قضى الـرب أن وصل و قتـذال السير أنسيـودي بري ممتطيـاً ظهر حصان كبير وقـوي، و كان مغطى بالحديد، و فـوق الحديد تجافيف جيـدة، ورمى بنفسـه عليهم، و أبـدى مهـارة كبيرة في استخدام السـلاح

حتى أنه كسر رمحه، وسيفه، لابل حتى خنجره قد انكسر، و تلقى ضربات هائله حتى لم يعد قادراً على استخدام يديه إلاّ بصعوبة بالغة، و بناء عليه وضع ذراعيه خلال المقود، و عندما جاء بعضهم ليهدم الجدار استخدم مهمازية و حال بينهم و بين هدم الجدار، و فعل أشياء عظيمة حتى أن مولاي صاحب بيروت صار صديقه الصدوق طيلة حياته، و حدث بمشيئة الرب أن السير بالين ابنه الذي كان معه عدد كبير من الفرسان، عندما رأى أن والده ليس هناك، عاد إلى الميدان، حيث ما أن رأى خصومه راياته حتى تولاهم الرعب و هربوا نحو مدينة نيقوسيا، وقام السير بالين الذي جاء متقدماً على الجميع بمهاجمتهم بحماس و ضرب حامل رايتهم بشدة متناهية مما أدى به إلى السقوط إلى الأرض، وسقط حصانه معه أيضاً، و أُخذ كثير منهم أسرى و قتل أيضا العديد ، لكن عدداً كبيراً نجا لسقوط السير بالين .

٦١ : و اعتصم السير عموري برلياس ، و السير عموري صاحب بيسان و السير هيوج صاحب جبلة في قلعة ديودامور، في حين مضى السير جوفيان و رجاله إلى كنتارا (١٢٤) ، و أوقع فيليب دي نوفار الذي خرج من دار استبتارية القديس يوحنا مع رجاله، فيهم أضراراً بالغة، و لاسيما بالذين كانوا في المدينة، و بعث.الوكلاء الخمسة المتقدم ذكرهم أعلاه من يجلب هنري الملك الشاب ، قبل أن تبدأ المعركة، و قد حملوه بالقوة ووضعوه في قلعة ديودامور، و احتفظوا به هناك و أبقوه بمثابة سجين تحت الحراسة، ووقعت المعركة السالفة الذكر في مكان أمام نيقوسيا في يوم السبت في الرابع عشر من شهر تموز في سنة ١٢٢٩ (١٢٥).

٦٢ : و في اليوم التالي للمعركة حوصرت القلاع، و تولى مولاي صاحب بيروت حصار سيرينا(١٢٦)، و قام أولاده : السيربالين، و السيربلدوين، و السيرهيوج(١٢٧)، بحصار قلعة ديودامور، و حاصر

السيرآنسيودي بري قلعة كنتارا، التي كان فيها السير جوفيان، و عقد مولاي صاحب بيروت —الذي كان يحاصر سيرينا —معاهدة مع اللومبارد الذين كانت القلعة المذكورة بأيديهم، شرطت أنهم إذا لم يتلقوا نجدة خلال مدة محددة، سيقومون بتسليم القلعة له، و هو سيقوم بدوره بالدفع إليهم المال المستحق لهم عن كل من الماضي و الحاضر، و تولى فيليب دي نوفار إعداد هذا الصلح، و تسلم القلعة في الوقت المحدد لصالح مولاه، و اصطحب اللومبارد و قادهم إلى خارج قبرص .

٦٣(١٤٧): ثم نظم فيليب دي نوفار أغنية، و بعث بها إلى القسطلان في عكا، وجاء نظم هذه الأغنية كما يلي :

سوف أقول لكل العالم في أغنية
المتكبر و الأحمق، من درجة عالية جداً
و حيث مامن انسان قد سمع قط أو رأى
مثل و كلاءنا الخمسة الذين ازدروا القانون و الحق.
و قد تجاهلوا العدالة و الحفاظ عليها:
و قد سلبوا زملاءهم و مولاهم
من اقطاعياتهم الموروثة، ثم إنهم ابتهجوا
و لمنع ذلك جاءوا إلى قبرص ثانية

عندما بدون ذنب سلبوا تماما
أولئك الذين كانوا حجاجا قدموا عن طريق البحر
من سورية و من عكا إلى كاستري

ثم بعثوا مباشرة إلى الملك رسالة لطيفة
أنهم قد جاءوا إليه ، على وفاق و اتفاق
عازمين على فعل الحق، و للحق محافظين
و لم يتنازل هؤلاء الوكلاء الخمسة للإصغاء.

دوماً جلب تكبرهم إليهم محنة محزنة
رجالنا على سهل نيقوسيا
يوم سبت نالوا النصر
و استردوا إقطاعياتهم، و بيوتهم و شرفهم ،بقوتهم
و هلك الخونة القذرين بحد السيف
و ابتغى بعضهم أي مأوى يحصل عليه في أي قلعة

★★★

و أسر بعضهم، وطورد بعضهم الآخر فوق السهل

و كان المقدم و قائد الهزيمة
هو الذي تولى قيادة قوات الساقة
حيث ما أن رأى المقدمة قد هوجمت، حتى على الفور هرب
على ظهر مهره الداكن الذي جرى به بقدر ما استطاع
فقد الحمقى في ذلك اليوم بسبب الخلاف و الخروج

الأرض، و الشرف، و الأقرباء، و الرفاق الذي شاركوهم مصيرهم
و حمل هؤلاء و الساذجين وصمة العار معا:
و الأفضل لهم الآن أن يتحولوا إلى رهبان وسط عارهم و آلامهم

شاهدنا في ذلك اليوم سقوطاً مدمراً من ارتفاع شاهق
و لتدمير عجرفتهم المجنونة و باطلهم
هرب صاحب الوجه المشوه مجللاً بالعار
وآخرون كثر منحطين و فرسانا خونه
إلى داخل ديوداامور وهناك تخفوا،
و احتجزوا هناك سجينا مولاهم الشرعي
احكم جيداً : أولا ينبغي شنقهم بحبل السجان و قتلهم؟
لقد اعتقلوه، و بذاته سجنوه

هؤلاء الأشرار الذين ينبغي تمزيقهم أثاروا
بعض رجال حمقى ليعتقدوا، بوساطة الخيانة
أن مولاي اقترف جريمة هائلة
بحصاره الملك و بازدرائه الحق .

★★★

تحول الرعاة الآن إلى ذئاب يزمجرون ويزأرون

ومادام خال الملك يحميه، إنه كله باطل

أن تأخذه من الحفظ لبيعه ثانية

امض أيتها الأغنية الموجعة وطيري كالسهم

واحملي حتى إلى سورية أخباراً مني

إلى القسطلان الذي يحبنا بإخلاص

وأخبريه أن عملنا يسير بشكل صحيح

الشكر لخالقنا وإلى ربنا

سوف يضحك كثيراً لدى رؤيته أن لينغير قد اعتقل

أنا مرسل إليك لسانه وأنفه لقطعهم قطعتين

٦٤(١٤٨) وذهب صاحب بيروت إلى حصار قلعة ديودامور، وعسكر عند نبع التنين، وكان أولاده فوق، أمام القلعة، وقامت القلعة في موقع حصين جداً، فوق أعلى الجبال، واحتاج حصارها كاملاً إلى عددٍ كبيرٍ من الرجال، لأنه كان بإمكان الانسان أن يخرج منها من أماكن كثيرة غير بابها، وكان في داخلها حامية كبيرة من الرجال على الخيول وعلى الأقدام، فقد هرب إليها معظم الذين نجوا من المعركة، ولقد حدث قتال شديد أمام الأسوار، وغالباً ما كان أمام الباب، ومع هذا كانت معاناتهم الشديدة من المجاعة، وهكذا أكلوا خيولهم، وبسبب أن الذين كانوا بالخارج شعروا بالأمان، تجول الفرسان ذهاباً وإياباً في البلاد حسبما رأوه مناسباً، ومن ذلك حدث أن صاحب بيروت ذهب إلى كنتارا لرؤية آلة حصار عظيمة Trebuclet(١٢٨)، كان السير آنسيودي بري قد أنشأها، وفي الوقت نفسه انتشر أولاده الثلاثة المتقدم ذكرهم أعلاه وتوزعوا في المنطقة، لهذا بقي عدد قليل من الفرسان يتولون الحصار، وأدرك الذين كانوا بالداخل هذا، وقاموا بإنقضاض عنيف تمكنوا به من

إنزال الهزيمة بالذين كانوا يحاصرونهم، واستولوا على معسكر الفرسان وعلى الأطعمة التي كانت فيه، ولو أن هذا لم يحدث لما استطاعوا الصبر كما فعلوا .

٦٥( ١٤٩ ) :وكان السير بالين في نيقوسيا مع عدد قليل جداً من الفرسان، لأن الموسم كان شتاءً، وكان الفرسان في بلادهم، وكانوا متراخين يقومون بأعمال الرياضة، ولدى سماع السير بالين بالأخبار جاء، واسترد المعسكر، وتابع المطاردة حتى باب السور، وحطم رمحه على حديد باب السور، وكان معه عدد ضئيل من الرجال الأشداء لهذا كانت المعركة مدهشة، ولم يكن هناك تدمير في كل الحرب مثل الذي أحدثه القتال في ذلك اليوم، وكان هناك قتال شديد من على الجانبين، وقدم أبوه صاحب بيروت الذي كان قد ذهب لرؤية الآلة التي كانت قيد الإنشاء أمام كنتارا،وذلك لدى سماعه بالأخبار، وكذلك فعل أخواه، وقدما من حيث كانا، وجاء جميع شعب البلاد مسرعاً، ثم تمّ الاتفاق بوجوب بقاء السير بالين هناك لمدة شهر، ومعه مائة فارس، مع عدد مناسب من الجنود الرجالة، وتوجب أن يكون أخاه في الشهر التالي، وهو السير بلدوين الذي كان حكيماً جداً ونشيطاً، مع مائة فارس أيضاً، وأن يكون هناك في الشهر الثالث السير هيوج، الذي كان واحداً من أفضل الفرسان، وكان قوياً ومرضياً في جميع أنحاء العالم، وبما أنه تقرر وجوب وجود واحد من الأخوة هناك، كان بإمكان الآخرين الذهاب إلى حيث شاءوا، ولكن عليهم العودة كل منهم في شهره .

٦٦ : واستمر الحصار لمدة عام تقريباً (١٢٩) وفق هذه الطريقة، وكان هناك في كل يوم قتال واستخدام للسلاح، وكان فيليب دي نوفار قد أصيب بجراحة في إحدى المرات أمام باب السور، كما أصيب بجراحات خطيرة عديدة، من طعنات الرماح، ورمايات النشاب، والحجارة، وطعن في أحد الأيام بسنان رمح خرق تماماً خلال ذراعه،

ونفـذ في قميص سابغتـه وفي جسده، وبـذلك انكسر الـرمح على طرفـه، وبقي القسـم المكسـور مع السنـان في ذراعـه، وصرخ الـذيـن كـانـوا في الـداخل قـائلين:«مغنيكـم قـد مات، لقـد قتـل»، وأمسكـه أعـداؤه من وسطه، لكن مـولاه وقاه وأنقذه بنشـاط عظيم، ونظم في المساء مقطـوعتي دوبيت على شكل أغنيـة، وغناهما بصـوت مرتفع، وبـذلك عرف الـذين كانوا في القلعة وتيقنوا أنه لم يمت .

٦٧( ١٥٠) وفيما يلي الشعـر الـذي نظمـه السير فيليب دي نـوفـار، عندما جرح أثناء الحصار أمام قلعة ديودامور :

لقد جرحت، لكن شفتاي لايمكن إغلاقهما بإحكام

حول السير رينارد وجماعته ـ

الذين من أجله انزلقوا وغرقوا بالعار

في داخل مالكروز Malcreuse، مأواه الأثير

لكن إذا كان الخوف من أجل نفسه قد أقنع رينارد

ما الذي فعله الإقطاعيون الآخرون التعساء ؟

والسيرجنديه؟ لماذا بيعوا ؟ ما هو ربحهم؟

مثل شياه جعلهم يبقون منتظرين

بالنسبة لرينارد يمكنه أن يجلب محناً خيانية

أكثر من غانئلون، الذي باع فرنسا خيانة وخساسة

لقد ملأ وكره ليقترف الدنس

مشبعاً بأمل أن يحكم البلاد وأن يضرب .

وعليهم صب هزواً كلمات سلام .

ياللعار،لخدمة خائن هكذا ضلوا !

في الخارج، لخدمته ذاقوا ألماً مبرحاً

في الداخل، بهلوانيتهم أوصلتهم إلى حبل المشنقة .

٦٨(١٥١) : وعانى الذين كانوا في قلعة ديودامور من المجاعة كثيراً(١٣٠)، حتى أنهم احتفلوا في عيد الفصح (١٣١)احتفالاً عظيماً على حمار ضئيل قد أمسكوه، وإلى هذا الحمار أشار فيليب دي نوفار في قصيدته عن رينارد، وقال بأنهم باركوا الحمل ذي الأذنين الكبيرتين وأكلوه في عيد الفصح، وهذا ما يمكن أن تجده فيها، وضغط السير آنسيو الذي كان يحاصر كنتارا على القلعة بشدة وعن قرب، حتى كان مذهلاً أن تصدق الذي فعله، ورمت الآلة التي كانت لديه هناك جميع الأسوار تقريباً، لكن الصخور كانت قوية جداً تعذر التسلق عليها وتجاوزها، وتحمل الذين كانوا في داخلها مصاعب جمة وخسائر كبيرة، حتى أنهم أ لقوا بأرديتهم وبأسلحتهم عندما هربوا خلال الطرقات ساعة مغادرتهم لميدان المعركة، ذلك أن ميدان المعركة كان على مسافة خمس عشرة مرحلة عن القلعة .

٦٩ : وحدث في إحدى الليالي أن ذهب فيليب دي نوفار مع السير آنسيو ليقوما بالحراسة، وسمعا حديث الذين كانوا داخل برج صغير مهدم، كان قد بقي من القلعة، وكان من دون ذلك هو على دراية بأوضاعهم، ولذلك نظم أغنية جاءت كمايلي :

حرست في الليلة الماضية حتى ظهور الصباح

بصعوبة قرب الأسوار، وحيداً، ومن دون أحد قريب

وسمعت من أعالي برج عويلهم واضحاً

أولئك الذين في كنتارا، امتلأوا حزناً وأسى

توجه واحد من الجماعة لآخر بالحديث
وقال :«واأسفي يا إلهي ما الذي سوف نفعل ؟
ليلعن الرب رينارد، لما اقترفه بحقنا من خيانة
ورسائل لاكستري المكتوبة الزائفة
التي وصلت إلينا قبل الفجر» .
« نحن فريسة الحزن وعميق الأسى»
هذا ما أجابه به الآخر، وأنا أسمع بشكل واضح :
«نحرس بالليل وفي النهار بدون توقف
نحن نتعب، مع قليل من الطعام، وثيابنا رثة، وزادنا قليل
نحن نعد لرامي الحجارة قذائفه للرمي
نصيبنا هو الألم، نحن نرمي، ونجر، وننجر :
إذا كنا سنظل نعاني من هذا القدر طويلاً
أتمنى أن يأخذك الموت هذه الليلة ويأخذني
قبل حلول الفجر» .
وسمعت آخر يقول:«يا رفاقي ويا آلي
سوف تنهمر من أجلنا كثيراً من الدموع المريرة
بعد قليل سنموت، أفراننا زلزلت ودمرت
تحت الضربات من قاذفات الحجارة والآلات
لقد دمروا أسوارنا، وأبراجنا، وبيوتنا أيضا .

- ٢٤٤٩ -

كيف سنحمي أنفسنا، إذا هاجمونا من جديد؟
وبات رجالنا وسلاحنا بندرة مأساوية
لن تعطنا الأسوار المزيد من الضمان
دعونا نهرب من هنا قبل الفجر» .
«الفرن والطاحون دمرا وزالا من الوجود
والبقاء هنا سيكون حماقة واضحة .
كامن لنا بقصد الخيانة والخداع
وكلاء ديودامور الذين جعلوا الصدق كذبا
لقد سرقوا بخيانة مطلية بالسواد
الملك، الذي أقسموا على تسليمنا
إياه، ثم جعلونا نقاتل في نيقوسيا
وكان ذلك موتاً لنا، ولهم أمان
آه، آمل أن لايروا الفجر مطلقاً »

«العون الموعود قدومه يوم عيد الفصح تأخر كثيراً،
ماأخشاه أننا تعطلنا، وفقدنا الأمل .
عندما رأينا الامبراطور للمرة الأولى، كان اليوم
يوم أسى، ينبغي أن نطلب النعمة، أو ندفع لذلك غالياً»
ثم تابع يقول :«هل يمكننا إيجادها، فهذا صحيح،

لكن قليلاً من النعمة سوف يعطونا، إذا ما التمسناه
والأفضل بكثير هو أن نهرب إلى تركيا
لكن الحراس هناك يراقبون عن قرب
كل الليل حتى الفجر» .

عندما رأى جوفيان حالة رجاله بمثل هذه الحالة البائسة
تغيرت نواياه، ومن ثم بدل خططه
فخاطبهم وهو يتنهد قائلاً :«أيها السادة الأمائل، قد لا
أجد لنفسي رسولاً، من هنا
يتقدم بجرأة ويحمل رسالة ويتقدم بها

★★★

في سورية وقبرص مايزال هناك
من سوف يحزن لموتنا حزناً عظيماً جداً»
وعند هذا انبلج ضوء الفجر .
وعندما سمعت نواحهم بكل وضوح
عدت مسرعاً نحو سيرجنديتنا رسولاً
ومن ثم أخبرتهم، وأنا جزلان مسرورا
بأن الآلام والخلاف استبدا بكنتارا، بكل وضوح
وبما أن واحداً من قادتي سألني التبيان

★★★

هكذا توليت، قص أخبار التعاسة

التي سمعتها، عندما وقعت، وأعلنت عن نفسها بصوت مرتفع

ثم أشرق في كل مكان ضوء الفجر

٧٠(١٥٢) : وقد حدث في أثناء الحصار أن السيد الشاب صاحب قيسارية ـ الذي قتل ابنه في معركة الوكلاء الخمسة أمام نيقوسيا ـ قد وضع ومركز رجاله في المنطقة المجاورة فوق صخرة حادة كانت قريبة جداً من القلعة، وجعلهم يرمون من هناك خلال النهار وأثناء الليل، وكان لديه واحد من أبرع الرماة بالقوس العقارة، وكان قد أبصر السير جوفيان عندما كان يتجول في القلعة، وهكذا راقبه بشكل متواصل بكل تيقظ ونجح في قتله بوساطة نشابة، وكان ابن عمه السير وليم دي ريفت قد ذهب إلى أرمينيا طلباً للمساعدة، وقد توفي هناك، ثم أصبح قائدا كنتارا فيليب شينارت(١٣٢) Chenart الذي كان أخاً للسير جوفيان من خلال أمه، وكان شاباً متسرعاً وبلا خبرة، وأخفى الذين كانوا في الداخل خبر مقتل السير جوفيان، لكن رامي القوس العقارة كان متأكداً من قتله له .

٧١ : ولم يعد بإمكان الذين كانوا في القلعة التحمل أكثر، ولهذا أقاموا سلاماً، وافق عليه مولاي صاحب بيروت بترحيب من أجل ضمان سلامة الملك، ذلك أنه خشي أن يحمل في الليل إلى خارج القلعة ويودع في أحد الأماكن ومن ثم يرسل إلى أبوليا، وسلم الذين كانوا في الداخل أخيراً الملك، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت، وسلموا معه أخته والقلاع إليه، وأقسموا أنهم لن يقفوا ضده أو ضد أولاده، أو ضد الذين هم من حزبه بشكل مطلق ودائم، وأقسم (صاحب بيروت ) وأولاده لجميع رجال حزبهم(لأن يأمر)(١٣٣)، بحفظ سلام مشرف معهم، وتم

الاتفـاق أيضاً على أن تقـوم أسرة السير جوفيـان بمغـادرة قبرص، بسبب أنـه قتل القسطـلان، لكن يتوجـب الاحتفاظ بـإقطاعيـاتهم(١٣٤)، وأن يرافقـوا بأمن وسـلام حتى مغادرتهم البـلاد، وأبرم هـذا السلام الـراهب الاسبتـاري الشجـاع الـذي اسمـه الـراهب وليـم دي تينـر Teneres (١٣٥)، وكـان وشيج الصـلات بمولاي صـاحب بيروت، وكـان السرور عظيماً عندمـا خرج والملك من القلعـة، وكانت البهجـة عارمة، وقـدمت هـدايـا كبيرة وأعطيـات، ولم يحضر السير آنسيـو، وفيليب دي نـوفـار، والفارس الذي هوجـم، وكان اسمه تورينول، ولم يرغبـوا أن يكونوا هناك، كما أنهم لم يتحدثـوا قط مع أعدائهم المتقـدم ذكرهم أعـلاه، لكنهم قبلوا السلام، نزولاً عند إرادة مولاهم .

٧٢ ــ وبينما كان السـلام قيد الإعـداد ، أرسل فيليب ليسـافر، وكـان هكذا في ليماسول داخل سفينـة حيث توجب عليه الذهاب بمثـابة رسول إلى بلاد مـا وراء البحار، إلى البابـا وإلى ملك فرنسـا، وإلى ملك إنكلترا، وإلى ملوك إسبانيا الخمسة (١٣٦)، ليخبرهـم، ثم يكرر إخبارهم، وليقدم شكـوى ضد الشرور العظيمـة والآثام التـي اقترفها الامبراطـور فـردريك والناس الذين كـانوا في حاشيته في قبرص وفي سوريـة(١٣٧)، وما أن تمّ إبرام السلام حتـى رغب فيليب في صنع أغنية منظومـة تتعلق به، غير أن صاحب بيروت لم يـرغب بذلك، لكن بعد شيء مـن التردد أذن بحكاية واقعـة رينارد التـي ذكر بها أسماء عـدة وحـوش، وقد أشـار إلى صـاحب بيروت تحت اسم زنغـريـم Zengrim، وإلى أولاده بـاسـم ذئابـه، وإلى السير آنسيو دي بـري باسم الدب، وإلى نفسـه باسم الـديك شانتيكلير Chanticleer، وإلى السير تورينـول باسـم السنور تيمبرت Timbert، وجميع هؤلاء الوحـوش هم من حزب زنغريم في حكـايات رينارد، وأطلق على السير عموري(برلياس) اسم رينـارد ، وعلى السير عموري( صاحب بيسان) اسم غـرمبيرت الغرير، وعلى السير هيـو اسم القرد، ولقـد دعاهم

من قبل على هذه الشاكلة، كما تذكرون، وهؤلاء الوحوش هم حزب رينارد في حكايات حولهم أنفسهم .

٧٣ : وهذه هي القصيدة حول رينارد وتبيان كيف أن زنغريم قد هزمه :

ظل رينارد في حالة حرب لمدة طويلة جداً
أحرقت البلاد وأحدثت فيها الخراب
وقد قام بالكثير من المغامرات
جلبت له المرارة والآلام
ودنا رينارد مراراً من تلقي ضربة مميتة
عندما كمن له زنغريم الذئب وانتظره
وحاصره داخل مالكروز Malcreuse
وهو حصن قوي كان قيد استعمال رينارد
دون أن يكون لديه ما يأكله أو يملأ به الكأس
ووصل إلى حالة صعبة جداً
ولولا أن نبيلاً تولى المباحثات
لواجه رينارد منيته مع رفاقه
غير أن الرب الذي يرسل جميع التبريكات الطيبة
قضى بوجوب إنهاء هذا الصراع
وأن يتخلص رينارد من مآسيه وآلامه .
ومع هذا لم يكن متأكداً من السلام

وظل موسوماً بالضعف والمرض .
وكان رينارد، وغرمبيرت والقرد أيضاً
هناك، ولم يكن من جماعة أخرى أحد :
والذي أحصي مع رينارد في الداخل، مجرد ثلاثة
فقد تخلى عنه رفاقه بالسلاح
وعندما وضع السلم حداً لرعب الحرب
هذا بحق وبكل تأكيد يمكن للمرء
أن يسميه بأقذر أسماء الخيانة
مرة واحدة فقط عانى رينارد من مثل هذه الجرائم
بينما هو نفسه كذب أكثر من مائة مرة .
وجماعته الثلاثة الذين دونت أسماءهم هنا
لم يكونوا على وفاق بين بعضهم بعضاً ولا مع أحد،
بل عقد سلامهم مع زنغريم لوحده
ومع الذئاب الذين ينتمون فقط إليه ويعودون
وهؤلاء الذئاب، كما بينت لك
لم يحققوا كل ما أرادوا تحقيقه
وعندما أرغموا بالقوة على الوصول إلى نهاية
للصراع، رينارد لن يكون مطلقاً صديقهم .
لأنه عندما لعب دور المعالج، كان هو السبب

في وقوعهم في مصيدة بين فكي الذئب
وعندما رماهم في وكر الذئاب :
كانوا سيتألمون كثيراً، ما لم يدفع لذلك غاليا .
بالنسبة لهم أن ينشدوا التعويض لائق وصحيح
الرب يمقتهم لأنهم لم يحبوا انساناً قط!
ظل جالساً هناك مع مقاصد قتالية حادة،
لم يقم سلامه مع أي انسان .
مولاي الدب، و تيمبرت السنور أيضاً،
قد وعدا بضربه، و بإلقائه إلى الحضيض
و فوق هذا، السير شانتيكلير الديك
الذي هو على رقعة الشطرنج مثل الصخرة تماما،
مرارا مرّ خلال مملكته و اجتاز
و غنى بصوت مرتفع في أغانيه عن مصائد الذئب
و غنى بشعر منظوم لكل من أراد الإصغاء
و حكى كيف جرى قذف جراء الذئب
و أعاد السير شانتيكلير شحذ مهمازه
و لو أن أي بارون، هكذا أعلن
سيتجرأ بالهجوم على رينارد و الانقضاض عليه
هو— شانتيكلير — سوف يساعده، و يضرب بشده

رينارد الآن في البلاط، كما يمكنك أن ترى،
مبتهجاً، فخراً سوف ينال مع الاحترام .
و من زنغريم اقترب كثيراً :
و تطور به الحال حتى كاد أن يصبح ابن عمه
و قدم التحية لأبناء الذئب واحداً تلو الآخر
و عانق كل واحد منهم عندما التقاه .
و عمل رينارد أعمالاً كثيرة حتى يثير البلاط،
و كان يضحك متصنعا، و يؤدي حركات مبتذله
و كان لدى توليه رواية حكاياته، غالباً ما كان يسمي
و يعيد تكرار ذكر مجده و عاره :
و كانت كلماته مليئة بالحرب و صوت القتال :
و كان يهذبهم و يشذبهم، و يضيف جراحاً إلى الجراح .
و ألقى الدب عليه نظرة ثابته
و نظر إليه السير تيمبرت السنور شزرا
و تساءل ما الذي سيقترفه من جديد.
و على سؤاله أجابه شانتيكلير قائلا :«الآن سوف نرى
فيما إذا كان السير رينارد سيجعل منا أضاحي»!
و تنبه رينارد المرتجف لهذا كله و لاحظه،
و كان يخاف من الدب، الذي في أيام خلت

جعله يرتعد خوفاً، و يشعر بالويل.
و بتذكرة بسيطة تراه أخذ يرتعد خوفاً .
و من ثم بدأ يتشاور مع ابن عمه غرمبيرت،
و صرخ : «يابن عمي، الويل لي، إنني على أبواب الموت» !
وازداد ارتفاع ضغطه، و تحول لون وجهه إلى أصفر فاقع:
و كان مرضه المميت اسمه الرعب .
و طلب رينارد مع أهل بيته و ابتغى الراحة
و إلى جانبه و معه ذهب غرمبيرت الغرير
و ذهب أيضاً القرد، أعني السير كوينترو
و ذهب السير رينارديين النمر أيضاً
و إلى هناك قدم مالبرانش و بيرسيهي
و مثلهما هيرميلاين، زوجته النبيلة :
لقد جاء وا فرادى وجماعات و اندفعو إلى جانبه هائجين:
«أخبرنا ياسيدي، ما الذي حل بك الآن من ويلات»؟
و أجابهم قائلاً :«أنتم ترون حالي ، لذا لاتتوقفوا
و اذهبوا الآن و أحضروا لي الكاهن بدون تأخير»!
و عندما سمعت هذه المجموعة الخبيثة كلماته
اعتقدت بدون أدنى شك أنه يقول الحقيقة،
و أنه بشأن موته هو مرعوب تماما ،

و أن سيدهم الدنيوي سيكون ميتاً.
لكن هذا كله كان غشاً و خداعاً،
و على الانسان أن يحرس نفسه بعناية أعظم
ذلك أننا نفتقر بلا إرادة إلى ذلك الفن الذي يتقنه
و نحن نعلم، حتى يقلع كل ريشنا من جلدنا
بأن رينارد مخادع حتى بقلعه لريشه
فهو ماهر جداً بكل نوع من أنواع الغش والسرقة،
وهو يفكر ويمعن النظر بكل الشرور
ويبدع مؤامرة ذات خداع هائل،
لأنه بتظاهره بالاعتراف
سينال المغفرة، ويطلب المسامحة
من جميع الناس، بما أنه على وشك الموت
ومن الآخرين الذين يخشون العار أو الخطأ
لابل حتى من الدب الذي ألقاه أرضاًوداس عليه
والذي سدد إليه مايستحقه وبشكل عادل
أما بالنسبة لتيمبرت ولشانتيكلير أيضاً
نحن نريد أذاه عن قصد معلن، ونبغي سقوطه
وهو يعرف تمام المعرفة أنه مالم يستل سخيمة نفسيهما
طريقه في الحياة لن يكون سليما ولالينا

بل سيشتهي كثيراً الوقت والمكان
فعندما سيتمكن ثانية من الاستقرار،
سوف يعيد إشعال النار عن طواعية
وذلك عندما سيحصل على الوقت والمكان حسب رغبته .
وهكذا كان ما قاله:« أحضروا لي الكاهن»
كما وطلب إحضار جسد ربنا
وحضر المخلص الآن، لكن كما يمكنك أن ترى
كان السير رينارد معلماً متمرساً بكل أنواع الخداع
والتف صحبه من حوله تماما ودعموه
وشرع يتكلم حتى يجعل اعترافه بهيجاً :
«أيها المولى، إنني بحضورك المقدس أعترف -
فمنك يأتي كل نوع من أنواع الخير -
إنني أعترف، وأقول بأن زنغريم
لم أحبه قط، ولن أحبه مطلقاً
وعندما أديت اليمين منذ زمن مضى، الرب يعلم
إذا حدث وتفوقت وامتلكت السيادة
ليس بنيتي أن أقدم له معروفاً ثانية
ولن أضفي شيئاً من المعروف على أي من رفاقه
على أنني أكره بمرارة أبناءه الذئاب وأمقتهم

وكذلك أسرته من أساساتها،
ولقد أبديت لهم هذا فيما تقدم من أيام
لكن أرجوك لاتستشرني هذه السنة.
فأنا واقع في بؤرة من الشر، وجلب ذلك لي العار،
وقد أخفقت بكل شيء آخر، وأعلن عن توبتي
سيدي الآن زنغريم، الذي سيكون
الرعب والأسف هما مصيري .
وها هنا الآن أيها السادة سيادتي :
وهنا في الحقيقة إخفاق خداعي وسقوطه .
ومعه أولاده الذئاب الصغار في الأمام وفي الخلف .
ويبدو كأنما لم أعرفهم أنا قط .
وبما أنني منذ الآن لن أستطيع إيذاءهم أكثر
من أجل الرب، أتخلى وأغادر، لأن قواي الآن لاشيء
وشيء واحد لدي، يعطيني راحة كبرى
هو أنهم سوف يحافظون على سلمهم معي بشكل جيد
لكن هل لدي الوقت والمكان وفقاً لرغبتي،
فقد أحرقت نفسي معهم بنار ملتهبة
وأنا بالنسبة لكثيرين قد اقترفت آثاما بغيضة
ومع هذا إنني لم أفلح بآثامي كلها وأحقق رغبتي

ويبقى الرب الذي يعرف قلبي وتفكيري الباطني،
يمكن أن يغفرلي الآثام التي اقترفتها .
بحق الرب، ضربني مولاي الدب ورماني أرضاً
وترك على ظهري العار والشنار مشهوران .
ولئن كنت قد اقترفت بحق تيمبرت كثيراً من الأذى
هو اقترف أولاً بحقي كثيراً من الشرور
ولو جاء شانتكلير إلى هنا بناء على أمرك :
وبحق الرب، لقد سار راكباً خلال أرضي كما يريد :
ولأن أكون متصالحاً معه، سأكون مبتهجاً،
لأن كل ما أعطاه لي كان مجرد آلام كبيرة
إنني أسامحهم، دعهم الآن يتولون مسامحتي
بهاتين اليدين اللتان صفقتا هنا كما ترى .
وإذا لم يكن لدي قوة غير ما سلف وأعطيتنيه
بناء عليه لن أستطيع إثارة الحرب عليهم أكثر
ومع هذا لئن لم أستطع إمساكهم بأية حيلة
لقد جعلتهم يعرفونها برضا من كل قلبي»
وبسرعة أرسلوا رسالة إلى الديك، يقولون فيها
بوجوب قدومه لتقديم المسامحة على الفور .
ورد الديك قائلاً :«باسم الرب، دعوه يعرف

أنه إذا مات، فهو معفى من كل لوم
وعلى كل حال، إنني أعرف جيداً علته
فهي لاشيء سوى خداع دنيء، وشرور .
ولو أن مولاي زنغريم حكيماً،
لتعامل معه بالطريقة نفسها والخداع
فقد اعتاد البازيار الاغريقي مع النسر أنه :
إذا ما أطعمه مباشرة وبدون تمييز
سوف يغدو متكبراً ومتعجرفاً مع الجميع،
دعه أولاً يقدم إجابة للنداء .
ويؤلمني كثيراً أنه بسلوكه الشرير
قد نجا عشرات المرات من المصيدة .
أشياء غريبة أثناء عيد الفصح بناء على أوامره
قد اقترفت، عندما تجرأ وبارك وقدس
ومن ثم التهم الحمل ذي الأذنين الطويلتين .
وعلى هذا ليس هناك خطر، ولاسبب للخوف
والآن إذا لم نراقبه ونرصده بأعين حذره
سوف يغشنا ثانية بخداعه»
ولم يتمكن المراسل أن يجعله يقول أكثر،
وهكذا عاد إلى رينارد بدون تأخير

وحكى له كلمة كلمة
الجواب، والرأي الذي سمعه .
وبناء عليه قال رينارد للشماس :
«إنني سأموت الليلة، أو عند انبلاج الفجر .
وإذا ما تمكنت من النجاة من هذا الانهيار،
يمكنني تحقيق الراحة والهدوء .
لقد سومحت وسوف أسامح الجميع، الرب يعرف
الوقت الذي سوف أبعث فيه من هذه البقعة .
حللني يا سيدي، أرجوك باسم الرب،
لقد أذنبت كثيراً من الذنوب، يا لعاري
حتى لو أنني عشت مائة سنة
لن أستطيع إلقائهم جميعاً في أذنيك»
وأعطاه الراهب التحليل الآن والغفران
لكن ذلك كان على شرط فقط
أن يأتي إليه إذا ما عاد صحيحاً .
وأجابه قائلاً :«سأفعل، وسأذهب إلى آخر أيضاً
هو الذي سوف يتألم كثيراً عندما سيسمع،
لقد وعدت، ولسوف أذهب، وأقول كلمة» .
وبناء عليه تنازل الراهب وأعطاه الغفران

وحصل على ذلك في ساعة مرض

وغادر يسوع، وبقي رينارد حيث هو

مليئاً بالخداع وبفن الشر .

فللشيطان في داخله جزء جبار :

وفيه شرور عظيمة تحت جلده،

لقد كان وسيكون، مادام حياً

خائناً غارقاً في مفاسد دنسة

حتى تذهب روحه الدنيئة والتعيسة .

٧٤ ( ١٥٤ ) : بعد عقد المصالحة أعطى صاحب بيروت الجيد وأولاده كثيراً من الحاجيات الجيدة، والتشريفات العظيمة، ومبالغ كبيرة، إلى أعدائهم، وأعطوهم خيولاً وملابساً، وأسلحة، وهدايا أخرى، وطلبوا صحبتهم وقد ارتدوا الملابس نفسها، ومتعوا نفوسهم مع بعضهم، ولم يبقوا في نفوسهم شيئاً مما كان، غير أن أعداءهم اهتموا برغباتهم المجنونة واعتنوا بها، وما لبثوا أن أظهروا ما في نفوسهم حالما كانوا قادرين على ذلك، وكان فيليب قد توقع بشكل جيد وصوّر في قصيدته عن رينارد ما حدث فيما بعد، وتعمد عموري برلياس بقصد شديد وبذل جهوداً كبيرة لأن يكون بصحبة صاحب بيروت وأولاده وللمشاركة باحتفالاتهم، ودعا السير بالين بأخيه، وغالباً ما تحدث عن المعركة التي وقعت وعن الحصار، ولهذا لم يوثق به، لأنه أن يتذكر الانسان عاره بشكل كبير في ذلك دناءة وانحطاط .

٧٥ : وفي أحد الأيام كان الحضور في البلاط كثيفاً، وكان السير عموري برلياس وصحبه كلهم هناك بين الحضور ، وكان آخر من دخل إلى البلاط معاً السير آنسيو دي بري وفيليب دي نوفار، وتورينول، ونظر

السير عموري متمعناً وعن قرب، فوجدهم يتشاورون مع بعضهم، ولذلك استبد به خوف عظيم، وبناء عليه قال بأنه مريض جداً، وأنه يحتضر، وبناء عليه خرج من البلاط هو ورجاله، وتوجه إلى بيته، واعترف هناك فوراً وتناول القداس قائلاً إنه قد سامح جميع الناس، وبوده أن يطلب رحمة الرجال الثلاثة المذكورة أسماؤهم أعلاه، لأنه يخاف منهم خوفاً عظيماً، لأنهم لم يكونوا حضوراً أثناء المصالحة، ولم يقسموا على قبول المصالحة حتى الآن، وقد بعث برجال دين إليهم يلتمسون منهم القدوم إليه، وهم لم يرغبوا بالذهاب، لكنهم ردوا عليه أنه إذا ما مات سوف يكون مسامحاً من قبلهم، وقد حدث هذا قبل نظم القصيدة المذكورة من قبل، ولهذا السبب ذكر فيليب هذه القضية في القصيدة .

٧٦ ( ١٥٦ ) : وأرسل السير عموري وحزبه رسالة إلى الامبراطور ـ كما قيل ـ حدثوه فيها عما وقع، وبعثوا بأعذار كثيرة بشأن المصالحة التي صنعت، وبعثوا إليه يخبروه أنهم ما يزالون يتملكون لإقطاعاتهم، وفي حوزتهم جزء كبير من البلاد، وأنه إذا ما أرسل إليهم قوة صغيرة سوف يتولون ثانية إخضاع أولئك الذين كانوا هم أعداءه وأعداءهم، وقد قيل بأنهم راسلوه مراراً، وقد وجدوا في النهاية الذي نشدوه ( ١٣٨ ) .

٧٧ ( ١٥٨ ) : وحدث ذلك في سنة ١٢٣١ أنه عندما تصالح الامبراطور فردريك مع الكنيسة واسترد جميع ما فقده من أبوليا ( ١٣٩ )، أن قام هذا الامبراطور، أي فردريك ، الذي كره سورية( ١٤٠ ) وقبرص كراهية كبيرة، فأرسل إلى قبرص وسورية جيشاً كبيراً من باروناته من أبوليا وصقلية، مع جميع الذين كرههم كراهية كبيرة وخاف منهم، وقد قيل توفر في هذا الجيش ستمائة فارس بدون نقص، ومائة من السادة الخيالة، وسبعمائة من الجنود الرجالة، وثلاثة آلاف من البحارة المسلحين، وأسطول كبير وجيد من السفن، وسفن النقل، وكذلك اثنين وثلاثين من الغلايين، وكان قائد هذا الجيش هو رتشار فيلنغر، الذي كان مارشال

الامبراطورية( ١٤١ )، وسمع مولاي صاحب بيروت بهذه الأخبار، وكان آنذاك في عكا ( ١٤٢ )، وقد سمع بقدوم هؤلاء الرجال من رجال سفن الاسبتارية والتيوتون التي قدمت إلى عكا( ١٤٣ )، فبادر لدى سماعه بذلك فجمع قدر ما استطاع من الناس، وأخذ معه شطراً كبيراً من حاميته العسكرية، الأمر الذي أسف له فيما بعد .

٧٨ : وقدم إلى قبرص، واستدعى على الفور جميع الناس إلى حمل السلاح، وقد قدموا إلى ليماسول، وكان أول القادمين ابنه السير بالين ومعه قواته( ١٤٤ )، وفي الساعة التي وصلوا فيها، وصل أسطول اللومبارد إلى قبرص إلى رأس غافاتا Gafata ، القائم قرب ليماسول( ١٤٥ )، وكان الملك هنري الشاب ملك قبرص ومولاي صاحب بيروت على الطريق، وعندما سمعا بالأخبار بادرا مسرعين إلى هناك، ولهذا عقرت خيول كثيرة، ومع ذلك عندما قدما مسرعين جداً، وعندما احتشدوا مع بعضهم، كان هناك عدد كبير من الناس على الخيول وعلى الأقدام، وقد انتظموا بصف رائع، وتوفر هناك من الأصدقاء ومن الأعداء حوالي الخمسمائة فارس، وكان هناك أيضاً أعداد كبيرة من السادة الخيالة والتوركبلية .

٧٩ : وخاف اللومبارد منهم، ولم يتجرأوا على النزول، ولأن الشاطىء كان مدافعاً عنه بشكل جيد لم يتمكنوا من السيطرة لاعلى الأرض ولا على الماء، وجرى تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين( ١٤٦)، وحافظ مولاي صاحب بيروت دوماً على الاستقامة أمامهم، وتكلم بتواضع كبير، حتى أن رفاقه غضبوا من ذلك، وتشاور اللومبارد والسير عموري برلياس مراراً فيما بينهم، وكان ذلك في أثناء الليل، وكان ذلك معروفاً بشكل جيد، وكان من الممكن إخضاعه للاستجواب بسبب ذلك لو توفرت الرغبة بذلك، لكن السيد النبيل لم يسمح بذلك، وقال من الممكن أنه كان يتحدث خيراً، أوأنه كان يتحدث شراً، وأنه رغب

باقتراف الشر، فإنه لن يفعل ذلك حتى يتضح تماماً أنه حنث بيمينه وخرق المصالحة، لأنه(أي الإيبليني) إذا ما أراد اتخاذ إجراء بناء على معطيات هي كلمات فقط،فسيقال بأنه حنث بيمينه، لأنه هنالك فرق كبير بين الكلام وبين الأفاعيل، ولم يستطيعوا زعزعته عن قراره، ولهذا تقرر بالفعل وجوب قتل(برلياس ) في خيمته في الليل أثناء وجوده في فراشه، وخشي صاحب بيروت من هذا الأمر، ولهذا أخذه إلى بيته ليقيم، وأمر بحراسته هناك بشكل جيد .

٨٠ ( ١٥٩ ): وعرف اللومبارد أنهم لن يتمكنوا من النزول إلى اليابسة بسلام، لهذا انتظروا وقتاً مناسباً( ١٤٧ )، وغادروا من هناك خلال الليل وذهبوا مباشرة إلى بيروت، وأخذوا المدينة على حين غرة، واستسلم الأسقف إليهم، وكأنه كاهن جبان( ١٤٨ )، وحاصروا القلعة( ١٤٩ )، وشددوا الحصار عليها عن قرب، ووجدوها تفتقر إلى الرجال، لأن صاحب بيروت لم يتخذ حذره تجاه هذا، وحمل الجزء الأكبر من الحامية العسكرية إلى قبرص، وقد عرف اللومبارد بهذا عندما كانوا في قبرص، ولهذا السبب قرروا الذهاب إلى بيروت، وكانت القلعة مزودة باللحوم بشكل جيد، وبالخمور وبالسلاح،لكن عدد الرجال فيها كان قليلاً، وكان لدى اللومبارد العديد من الجنود والمهندسين، والخشب الصالح للبناء والحديد والرصاص، وكل ما هو ضروري لصناعة الآلات الحربية، ولهذا صنعوا من الآلات ما هو كبير وما هو صغير، وهاجمت هذه الآلات القلعة بشدة .

٨١ : وكان معهم خائن اسمه دنس، وكان قائداً عسكرياً لدى صاحب بيروت، وسيداً لكل القلعة، ويعرف تمام المعرفة نقاط الضعف عند الناس، وقد بين لهم كيف يمركزون الآلات حيث يكون هناك ضرراً أعظم، وقد نال بالنهاية جزاءًوافياً، حيث علق من رقبته وشنق بمثابة خائن، وأطبق المحاصرون على القلعة، لأن المدافعين عنها كانوا قلة، وتمّ

الاستيلاء على خندق القلعة، الذي كان واحداً من أجمل الخنادق في العالم، وأقاموا عند قاعدة الخندق شارعاً مغطى تماماً مع برج عظيم من الخشب، ولغموا القلعة في كثير من الأماكن، وبنى اللومبارد خارج القلعة في مكان يدعى كوفور Chaufor قلعة من الحجارة، فوقها قلعة من الخشب كانت أعلى من القلعة وقد كشفتها كلها، وسببت أضراراً عظيمة للذين كانوا في الداخل، وهذه الخطة نفسها جرى إرسالها من قبرص، مع نصيحة بوجوب أن يفعلوا ذلك، لأن الخائن الذي بعثها كان يعرف أن صاحب بيروت كان يخشى كثيراً من هذا المكان المرتفع(١٥٠).

٨٢ ( ١٦٠ ) : ووصلت الأخبار إلى قبرص، بأن القلعة تحت الحصار، وأن الشتاء كان قاسياً، وجاء صاحب بيروت إلى البلاط، ومثل أمام الملك هنري الشاب، الذي كان مولاه وكان بالوقت نفسه ابن أخته، وامتلأ البلاط بعدد كبير من الناس، من أصدقاء وأعداء، ونهض ووقف على قدميه ـ كان من عادته أثناء الجلوس وضع ساقيه على بعضهما ـ ولأنه كان يعرف ما الذي عليه فعله، فقد تكلم بصوت مرتفع، وتوجه نحو هدفه بقوله :« سيدي، إنني لم أحاول قط أن أمتن عليك من أجل خدمات أسرتي نحو أبيك ونحوك، والآن لابد أنني الآن محتاج لأن أفعل ذلك، ولسوف أقارن نفسي ــ مع أنني قد لا أكون جديراً بذلك ــ مع وليم أوف أورانج، الذي عندما أحتاج إلى نجدة حفيده في كانديا Can-dia، امتن على مولاه الملك لويس من أجل الخدمات التي قدمها له» ( ١٥١ ) .

٨٣ : « ويمكنني أن أقول، ولدي الكثير من الضمانات من أجل ذلك والشواهد أنه بوساطتي وبوساطة أسرتي صار والدك سيداً وتملك البلاد، ولولا أننا أيدناه لكان قد حرم من الميراث أو مات، وعندما نزل به قضاء الله، كان عمرك تسعة أشهر فقط، وقد رعيناك، أنت وبلادك ـ شكراً للرب ــ حتى هذا اليوم، ولم نتخل عنك أبداً عن طواعية، ولم

نتركك لوحدك لأن دوق النمسا أراد حرمانك من ميراثك(١٥٢)، وكنت مرتين في وضع سيء أو أسوأ، ولو رغبنا أن نتخلى عنك وعن مملكة قبرص، وعن مملكة سورية لأمر الامبراطور بإعطائنا ملكية بيروت بسلام» .

٨٤ : « والذي حدث الآن أن اللومبارد قد استولوا على مدينتي، وهم يحاصرون قلعتي ويطوقونها عن قرب، وهي مهددة بالفقدان، وبذلك نكون أنفسنا وجميع رجالنا السوريين قد جردنا من أملاكنا، وبناء عليه أتوسل إليك، فأستحلفك بالرب وبشرفك، ومن أجل خدماتنا الكبرى، ولأننا من دم واحد، وقد تغذينا من أرض أم واحدة، وأرجو منك أن تأتي معنا، كما ألتمس الشيء نفسه من الآخرين الذين هم هنا بين الحضور، بحكم أنهم أخواني وأصدقائي المقربين، وأتمنى أن تقوموا شخصياً مع قواتكم بالذهاب معي للتفريج عن قلعتي»، وهنا توقف صاحب بيروت عن الكلام، وجثا وكأنه يريد أن يقبل قدمي الملك، فانتصب الملك واقفاً على قدميه، وجثا الآخرون جميعاً، وقال الملك، وقال الآخرون كلهم أنهم يوافقون عن طواعية، وأنهم يضعون أجسادهم وما يملكون تحت تصرفه وفي خدمته( ١٥٣ )، وشكرهم صاحب بيروت كثيراً، ثم انتصب واقفاً هو وجميع الآخرين على أقدامهم، لأنهم كانوا ما يزالون جاثين على أقدامهم .

## *كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا إلى فيماغوستا للعبور إلى سورية*

٨٥ ( ١٦١ ) : وتمت الرحلة بدون إبطاء، وحدث هذا في حوالي موعد عيد الميلاد ( ١٢٣١ )، وبسرعة وصلوا إلى ميناء فيماغوستا، وكانت الأحوال الجوية سيئة جداً، وقاسية إلى أبعد الحدود، حتى أنهم اجتازوا سهل فيماغوستا بكل صعوبة وفقدوا أشياء كثيرة على الطريق، ومكثوا مدة طويلة في الميناء بسبب سوء الأحوال الجوية، وانطلقوا أخيراً

لـدى انتهـاء مـوسم الاضطـراب، ومع مـوعـد تحول القمـر( ١٥٤ )، ولم يدعـوا ولاقائداً واحـداً في قبرص، وتكلم النـاس حول هـذا كثيراً، وأعلم فيليب دي نوفـار صاحب بيروت بذلـك، وقال له هناك كـلام كثير حول هذا، وقد ردّ عليه بقوله :« إذا لم أبـدأ الآن، أعرف تماماً أن القلعة ستفقد وسيتبع ذلك خسـارة البلاد كلهـا، ولئن منحني الـرب نعمة العبـور، كل شيء سوف يتم استرداده، وسيكـون هناك مجد عظيم، وإذا قـدر الرب أن أمـوت، ليكن ذلك على الطـريق، لأنني أفضـل أن أموت قبل أن أعـرف خسارتي، وليـس بعد ذلك، وأفضـل ذلك دوماً ــ بقضاء الـرب ورضاه ـ على أن يحدث في أيامي فقدان لأرضي أو لبلاد مولاي» .

٨٦ :« ويلـومني بعضهم لعـدم تركي قـائداً واحداً في قبرص، سـوف أخبرك لماذا( ١٥٥ )، ربما قد أتـرك الشخص الذي يمكن أن يـربح كل شيء حيث نحن الآن ذاهبـون، ولقد حدث مـراراً، أنه برجل نبيـل واحد قد نيل كل شيء، وبفقدان رجـل نبيل واحد تم خسران كل شيء، ونحن ذاهبون وفق طـريقة، وإلى مكان يقتضي أن يكون كل واحـد منا على ظهر السفن، وإذا مـا انتصرنـا، لـن تحتاج قبرص إلى قـادة، وإذا مـا خسرنـا، سينتهي كل شيء معنـا، والقائد الذي سيكون في قبرص، سيصمـد هناك لـوقت قصير، ولسـوف يهلك بعـد ذلك، لأننـي لا أعرف مكـانـاً في كل العـالم المسيحي يمكنـه أن يجد فيه مـلاذاً، ولهذا السبب لا أرغب ببقـاء واحـد من أسرتي أو ممن يحمـل اسم إيبلين، وإذا ما انتصرنـا فكل واحـد سينال نصيبـه في المجد والمرابـح، وإذا ما خسرنـا سوف نمـوت جميعاً في سبيل الرب، وفي سبيل حقوقنا في أملاكنـا، فهنا ولد معظم أقربائي، وهنا سوف يموتون» .

٨٧ : وأصغى فيليـب دي نوفـار جيـداً، وبـرغبة لهذا التعليـل، وتركـه وابتعد عنه وكرر كـل ما سمعه لكثير من الناس الذين كـانوا ينتظرونه في الخارج، وبناء عليـه قال كل واحد وردد بأعلى صـوته :«ما قالـه صواب،

هذا الرجل النبيل، دعونا نذهب في سبيل الرب»، وحاول الأعداء الذين سميتهم من قبل( ١٥٦ )، وهم الذين كانوا معهم تحت غطاء المصالحة والحب، وسعوا جاهدين بوساطة الخداع تسبيب التأخير، وفكروا بالاعتصام في قلعة كاستري Castrie التي عادت ملكيتها للداوية، وغالباً ما روي هذا لصاحب بيروت، وأشير بضرورة إلقاء القبض عليهم، لكنه لم يرغب قط في أن يفعل ذلك، وقال دوماً بأنه يرغب بالانتظار حتى تظهر شرورهم وتبات معروفة وواضحة، ووقتها سوف يقدم مولانا العون للحق .

## *كيف عبر القبارصة البحر بأمن وسلام ووصلوا إلى ميناء القسطلان في طرابلس*

٨٨ ( ١٦٢ ) وغادر الجميع معاً أثناء الليل، ما بين أصدقاء وأعداء، وكانت الأحوال الجوية سيئة والأمطار غزيرة، فهذا ما قضاه الرب، وقد ساقتهم الأحوال الجوية إلى ميناء القسطلان في طرابلس( ١٥٧ )، وقد وصلوا إلى ذلك الميناء بأمن وسلام وهرب من هناك الأعداء الذين ذكرت أسماؤهم من قبل مع حاشيتهم، وكان تعدادهم ثمانين فارساً، وقد ذهبوا للانضمام إلى الحزب الآخر، أي إلى بيروت للإلتحاق باللومبارديين ( ١٥٨ )، وعبر معظم الجيش عن استيائه، وانزعج بعض الناس كثيراً، وخاف عدد كبير من الشعب بسبب ذلك، وأقام مولاي صاحب بيروت احتفالاً كبيراً مظهراً رضاه بالذي حدث، وقال بأنه الآن يشعر هو بالأمان وبأن رجال شعبه قد تخلصوا من الخونة وتحرروا منهم، وبين أنه يفضل أن يواجههم بالقتال، وأن يجدهم أمامه لاخلفه، لأنه كان ينتظر طوال الوقت الذي تبعوه فيه، أن يقوموا بضربه ما بين كتفيه، والآن بما أنهم غدروا تجاه مولاهم، وبما أنهم تخلوا عنه في الميدان، وكانوا حانثين للعهود نحوه ونحو رجاله، لم يعودوا هم القوم الذين كانوا بالضرورة يخشاهم، ولهذا فإنه يرى في هذا العمل مربحاً كبيراً له، وخسارة عظيمة

للحزب الآخر .

٨٩ : وانطلق الآن صاحب بيروت وجماعته عبر البر وأسطولهم عبر البحر، ووصلوا في اليوم الأول إلى البترون، وتلقوا هناك أضراراً بالغة لحقت بسفنهم،لأن الميناء كان سيئاً، وقد دفعتهم الأحوال المناخية السيئة وجرفتهم، ولهذا غرقت غالبية سفنهم أو جنحت، وكانت البقية في حالة سيئة جداً، ومع هذا انطلق الناس من هناك، وركبوا وساقوا وسط الأمطار والأحوال الجوية السيئة، وساروا خلال شعاب منزلقة خطيرة، وعلى حواف وديان فائضة بالمياه على أطرافها، وعبروا ممر الكفار، وبممر نهر الكلب ( ١٥٩ )، الذي كان خطيراً جداً حتى يمكن عبوره، وهكذا ناضلوا حتى وصلوا بالقوة والحكمة إلى نهر بيروت، وعبر الذين كانوا في قلعة بيروت عن سرور عظيم وأضاءوا إضاءات كبيرة عندما رأوهم، وكانوا بحاجة كبيرة للنجدة، لأن القلعة كانت قد لغمت إلى حد أنها أخذت تتساقط إلى قطع، وسببت لهم قلعة كوفور أضراراً هائلة ( ١٦٠ ).

٩٠ ( ١٦٣ ) : وانتشرت الأخبار في أرجاء سورية بأن صاحب بيروت قد جاء للتفريج عن قلعته، وما أن سمع بهذا ابن أخته صاحب قيسارية الشاب، وكان وقتذاك في عكا، حتى وعد بمنح إقطاعيات،وقدم أعطيات كريمة، فحشد جيشاً بقدر ما استطاع، وقدم مسرعاً لتقديم العون إلى خاله وإلى أولاد خاله( ١٦١ )، وجاء بطريرك القدس، وكذلك مقدما الداوية والاسبتارية، وصاحب صيدا، وقسطلان المملكة للتوسط للمصالحة ( ١٦٢ )، ولدى المرور من أمام صور كان هناك اشتباك فيما بين صاحب قيسارية والحامية العسكرية للمدينة، ذلك أن صاحب صيدا كان قد سلم صور إلى اللومبارد بناء على أوامر من الامبراطور ( ١٦٣ )، ودفعهم صاحب قيسارية حتى أدخلهم إلى قلب أبواب المدينة، ونظر إلى قدومه بسرورعظيم من قبل الجيش، وأن هذا القدوم مفيد جداً، وتحدث اللوردات الخمسة المتقدم ذكرهم عن السلام،

لكـن ذلك لم يتحقـق( ١٦٤ )، واستمـرت الأحـوال الجويـة السيئـة لمدة طـويلـة، وكـان في المعسكر عـوز عظيـم لـلأطعمـة وللشعير، لهذا أكلت الخيـول كلها تقـريبـاً القصب فقط، وتـوفر القليـل من الخيـام ، ذلك أن معظمها قـد فقد في الأسطـول الذي تحطم أمـام البترون، وكان اللـومبارد يشعرون بالراحة والاطمئنان، وتـوفر لديهم الكثير من الأطعمة والحاجيات مع بيوت مريحة داخل المدينة .

٩١ ( ١٦٤ ): وخرج اللـومبارد في صباح أحد الأيـام باكراً، وتقـدموا على شكل صفوف قتـالية، وزحفوا حتى طـرف النهر، الذي كان عـريضاً جداً هنـاك، ولولا أنـه كان عـريضاً إلى هـذا الحد ما كانـوا ليخرجـوا من المدينة على هـذا الشكل، ومكثوا طـوال النهار هنـاك على هذه الشـاكلة، وذلك حتـى حلول الظـلام، حيث أرغمـوا على العودة، وتحسنت أحـوال المناخ، ومال نحـو الهدوء، وانخفضت مياه النهر، وبنـاء عليه عبر جيش الملك هنـري وجيـش صـاحب بيروت النهـر، وزحفـوا حتى وقفـوا أمـام مـدينـة بيروت، على شكـل صفـوف معبأة، وقـد انتشروا حتـى الخنـدق، وجرى هجـوم ضعيف أقلع به الـذين كانوا في المدينـة، لكنهم ردوا بكل عنف وصـدوا عائديـن إلى داخل المدينة، ورتـب الذيـن كانـوا في داخل المدينـة أنفسهم أمام الحصـار، وتقـاسموا مهـام الدفـاع، وتمركز الأعـداء الذيـن تخلوا عن الملـك وعن مولاي صـاحب بيروت، والتحقـوا بالحزب الآخر ـ أي اللومبارد ـ في أحد جـوانب المدينة حيث كان هناك برج كبير، ولهذا السبب غالباً ما دعي هذا البرج فيما بعـد باسم«برج الخونة»، وذلك صدوراً عن خيانة أولئك الذين تخلوا عن مولاهم في ميدان المعركة .

٩٢ : واتخذ اللـومبـارد احتيـاطات للحـراسـة كبيرة مـن جـانب البر، وكذلك مـن جانب البحر، حتى لايتمكـن أحد من الدخـول إلى القلعة، وأعـدوا غـلاييـنهم، وربطـوهـم بسلسلـة عظيمـة من الحديـد، وصفـوهم بشكل جيـد جميعاً من حـول القلعة في داخـل البحر، وتـركوا ممـراً واحداً

ضيقاً يمكنهم الدخول منه والخروج، وفتش صاحب بيروت في كل ليلة عن رجال تحت السلاح، أمكنه أن يرسلهم سباحة إلى القلعة، وغطس بعضهم تحت الغلايين، وسبحوا عراة حتى دخلوا إلى القلعة حيث وجدوا هناك اللباس والسلاح والطعام بكميات عظيمة، فالحاجة توفرت في داخلها إلى الرجال فقط للقتال وإلى القادة، وكان عدد الذين عبروا إلى القلعة ليس كافياً حتى يتمكنوا من الدفاع عن القلعة، وبناء عليه أعد صاحب بيروت خطة في أن يقوم أحد المراكب خلال الليل بالعبور، ووضع في داخله واحداً من أولاده، الذي كان يدعى السير جون أوف فوغيا، وذلك للسبب الذي سمعته من قبل، وقد أصبح فيما بعد صاحب أرسوف( ١٦٥ )، وقسطلان مملكة القدس، وكان وكيلاً عدة مرات( ١٦٦ )، وكان حكيماً ولائقاً، وكان مع جون هذا مائة من الرجال المسلحين، وفرساناً وسيرجندية، وسادة، وكانوا جميعاً من آل البيت الإيبليني وأتباعه.

٩٣ : وغضب ابنه الأكبر بالين غضباً شديداً، لأنه كان أسن من أخوانه، ووجه النقد لأبيه لأنه لم يدعه يذهب، وقال بأنه الوريث ( ولي العهد) وهناك سبب عظيم بالنسبة له لأن يذهب هو وليس الآخر، وغالباً ما عرض السير بلدوين نفسه وكذلك فعل جميع الآخرين، وكانوا غضاباً جداً لأنه لم يرغب بارسالهم، وقد رد عليهم بأنه يحتاجهم أكثر في الخارج وليس في الداخل ، لأنه كان ينتظر المعركة من يوم إلى يوم، وهكذا جعلهم يهدأون، وما أن علم الأتباع الآخرون في الجيش بخطة العبور حتى بادروا إلى هناك متسابقين، وكانوا من الكثرة بمكان إلى حد أن المركب طفا بصعوبة، وأمر صاحب بيروت هؤلاء جميعاً بالمغادرة، وشكرهم شكراً عظيماً، وكان أفراد أسرته والغرباء مرعوبين جداً من العبور بين الغلايين والدخول إلى القلعة، ومن ثم تولي الدفاع عنها، ووضح في هذه القضية مثلما وضح في قضايا أخرى أن ما من إنسان

أحب شعبه مثلما فعلوا، وكان المركب مليئاً بالناس حتى أن الماء وصل إلى حوافه، وعندما وصلوا إلى مدخل الطريق الضيق الذي ذهب اللومبارد من خلاله إلى غلاييهم، لاحظهم الذين كانوا في الغلايين وعرفوهم، فأصدروا صرخات مدوية، ووجهوا نحوهم رمايات كثيرة .

٩٤ : وبفضل الرب اجتازوا الممر، ونجوا من الغلايين، ووصلوا إلى صخرة تحت القلعة، ونجوا من الغلايين، ولم يعرف الذين كانوا في القلعة شيئاً عن قدومهم، ورموا عليهم بالحراب، وأمطروهم بالنشاب، لذلك عانوا كثيراً، لكنهم في النهاية عرفوهم واستقبلوهم بفرح عظيم، مع أنوار هائلة، وكانوا عندما صدرت الأصوات العالية من الغلايين وقت عبورهم من بينها، ألقى صاحب بيروت بنفسه على الأرض على شكل صليب باتجاه الشرق، وصرخ : رحمة يارب، وعندما رأى الأنوار على القلعة، وشارات دخولهم، قدم بتواضع شكره للرب، وفعل جميع الذين كانوا في الجيش مثلما فعل، وبعدما دخل ابن صاحب بيروت إلى القلعة ومعه عدد كبير من الرجال الجيدين، شرعوا بالدفاع عن أنفسهم بفعالية أعظم، وحفروا ممرات لغم مضادة للغامي العدو وأعادوا الاستيلاء على الخندق بالقوة، وأحرقوا الشارع الذي صنعه اللومبارد وغطوا به الخندق، وبعد هذا قام الذين كانوا في القلعة بأعمال انقضاض شجاعة، وربحوا أشياء كثيرة من الذين كانوا بالخارج، وأحرقوا عدة آلات حصار .

٩٥ ( ١٦٥ ): ثم تيقن صاحب بيروت وعرف أن قلعته باتت في وضع دفاعي جيد، لكنه لم يكن قادراً مع الرجال الذين كانوا بصحبته على رفع الحصار، وإنزال الهزيمة بأعدائه، الذين كانوا متفوقين عشرة لواحد، ولم يكن يخشى عددهم، وكان راغباً في قتالهم، غير أنهم كانوا داخل المدينة التي كانت محصنة بشكل جيد ولها أسوار ممتازة، وكانت لديهم السيادة على البحر، لذلك فكر في قرارة نفسه بالذهاب إلى عكا

ومن ثم تأمين عدد كبير من الجنود الرجالة مع أسطول كبير، حيث لم يكن لديه أسطول، كذلك بعث بابنه السير بالين إلى طرابلس مع الملك الشاب هنري، وفوضه تماماً للترتيب لزواج وعقده فيما بين أخت الملك وابن الأمير( ١٦٧ )، وبإعطائه إقطاعيات كبيرة في قبرص وقت الزواج، وذلك في سبيل أن يقوم الأمير بمساعدتهم بفرسان وبسفن وبرجال تحت السلاح، وكان الحديث حول هذا الزواج قد بدأ منذ زمن طويل مضى، وهكذا نفذ ما فكر به، لكنه جعل الذين في القلعة يعرفون بذلك حتى لايضطربوا لذهابه، وأنه يمكن أن يعود في أقرب وقت ويجلب معه خلاصهم، وأجابوه بأن عليه الاحتياط أثناء ذهابه باسم الرب وليكن مطمئناً أنهم سوف يدافعون عن أنفسهم بشكل جيد بعون مولانا وعون أنفسهم، وهكذا فعلوا .

٩٦ ( ١٦٦ ): وعندما غادر مولاي صاحب بيروت، وترك الحصار، انطلق ابنه السير بالين إلى طرابلس، وذهب معه السير وليم فيزكونت( ١٦٨)، الذي كان رجلاً عاقلاً، وبناء على الرأي الشخصي لمولاي صاحب بيروت، كان هو الذي بدأ المباحثات من أجل هذا الزواج، وكان قدولد في طرابلس، وفيليب دي نوفار، الذي لم يفارق قط(بالين) ذهب إلى هناك، كما فعل آخرون كثر، وكانت العوائق التي اجتازوها والممرات الصعبة كثيرة، وكذلك عبروا كثيراً من الأنهار العريضة، وقد مروا أمام جبلة، التي عادت بملكيتها إلى الحزب الآخر، وزحف الجنود طوال الليل خلال الجبال، ومع هذا فبفضل الرب شقوا طريقهم، ووصلوا إلى طرابلس، حيث عسكروا خارج المدينة في بيت الداوية، الذي دعي باسم مونتكوكو Montquocu، واحتفى بهم أمير طرابلس وأولاده كثيراً، وكان ذلك في البداية، وتباحثوا في كل يوم حول الشروط وحول مواثيق الزواج، وأيضاً حول المساعدة التي طلبها صاحب بيروت .

٩٧ ( ١٦٧ ): وبات معروفاً في ذلك الحين في طرابلس أن جيش

القبارصة قدغادر بيروت، حيث توفر عدد كبير من الناس قد اعتقدوا بأن كل شيء قد ضاع، وهكذا بردت حرارة مباحثات الزواج بشكل ملحوظ غير أنها استمرت، وركب السير بالين في أحد الأيام ومعه جماعته وساروا نحو «تلة الحجاج»( ١٦٩ )، لمقابلة الذين كانوا يتولون أعمال الإعداد للزواج، ولدى عودتهم وجدوا باب مونتكوكو Mont-quocu مغلقاً في وجوههم، وقال رجال الداوية لهم بأن سبب هذا تجنب التعرض للاهانة من قبل الناس المؤيدين للامبراطور، وبعث السير بالين رسالة طلب فيها المأوى في بيت فرسان الاسبتارية، وكذلك من البوليو Beaulieu الذين كانوا رهباناً سسترشانيين( ١٧٠ )، وأيضاً من الذين شغلوا تلة الحجاج، التي عادت ملكيتها إلى أسقف بيت لحم، وقد ردّت كل فئة من هؤلاء مثلما جاء ردّ الداوية، وكان في طرابلس فارساً شغل وظيفة نائب أسقف طرابلس آنذاك، وقد تولى إسكانهم في حظيرة للأبقار عادت ملكيتها لكنيسة الأسقف المذكور، وكانت تعرف باسم مخزن الأسقف، وكانت قائمة خارج باب طرابلس، وجرى إعداد البيت للسير بالين وتنظيفه وفرشه بقدر الممكن .

٩٨ : وحدث الآن أن مقدم اللومبارد، كان يعرف تماماً سبب وجود السير بالين أمام طرابلس، فصنع رسائل مزيفة كأنها مرسلة من الامبراطور، وكتبت هذه الرسائل في صور على رقّ إسلامي، وقد ختمت بختم الامبراطورالذي كان لديه، وجاء في هذه الرسائل بعد تقديم أعلى أنواع التحيات، أنه يرجو من أمير طرابلس وأولاده بحكم كونهم أقرباء أعزاء، ورجالاً مخلصين، أن لايمنحوا الملجأ إلى أعدائه وأن لايقدموا أية قوة أو أي عون، وبعث الأمير وأولاده هذه الرسائل إلى فيليب دي نوفار، مع مذكرة أخرى مكتوبة جاء فيها كلمات قالت في تراكيبها:« الأناس الطيبون لايميلون إلى الشر»، وجاء في نهاية هذه المذكرة ملاحظة فيها رجاء لفيليب دي نوفار أن يري هذه الرسائل إلى السير بالين ورجاله،

وأن يبين عذرهم، وكـان قد حدث أن قام أمير طـرابلس فيما مضى بمنح إقطاع إلى فيليب المذكور، وقد منحه إياه بمبـادرة منه وكرم، ذلك أنه كان كريماً مع كل إنسان، وقد أحبه فيليب وقـدر عالياً مبادرته نحوه، غير أنه لم يرغب بـالاحتفاظ بالاقطاع، ولا الخدمة من أجلـه، ولم يكن لهذا معجباً بما طلب منـه، ومع هذا قـرأ الرسـائل لمولاه وأخبره بجميع هـذه الأشياء، وقـام بدون معـرفة مـولاه بنظم مقطوعـة بسيطة وبعـث بها إلى الأمير هي التالية :

أيها الناس الأشرار الموسومون بالجبن

أنا لن أقبل به، مهما كان الثمن

وأن يقول الناس لا، عندما يتحدثون عنكم ...

٩٩ ( ١٦٨ ): وعـانى السير بالين وصحبـه في مخزن أسقف طـرابلس مـن كثير من الآلام والحزن، والأذى، ولم يكـن بـإمكـانهم المغـادرة، لأن الطـريق قـد أغلق أمـامهم وكـان محروسـاً بشكل جيـد من كـل من البر والبحر، ولهذا كـان أن بعث إلى سلطان دمشق( ١٧١ ) يطلب منحـه مع رفاقه أماناً ومساعدة حتـى يتمكنوا من المرور خلال بلاد الكفار، ومن ثم يـذهب إلى عكا، ومنحـه السلطان مـا طلبه بترحـاب، لكن الأمـور التي وقعـت فيما بعـد جعلت ذلـك غير محتـاج إليـه، وكـان السير بـرتـرانـد بـورسليت زوج والـدة السير عموري( ١٧٢ ) مـع مجمـوعة مـن الرجـال العائدين للسير هيوج صـاحب جبلة موجودين في بلاد طـرابلس، وغالباً مـا اعتـادوا على السير وهـم على ظهـور خيـولهم حول مقـر السير بـالين ورفاقـه، وكانوا آنـذاك يشيرون بأصابعهم إشـارات تهديد( ١٧٣ )، ذلك أنهم كانـوا ينتظرون من يوم إلى يـوم وصول غلايين اللومبـارد، وأملوا أنهم سوف يتمكنون وقتها من أسر السير بـالين ورجاله، وقتلهم في ذلك المقر، وهكذا عانى السير بالين وصحبه من هذا التهديد.

١٠٠ ( ١٦٩ ) : وحدث أنه عندما قام جيش القبارصة بمغادرة بيروت، أن أعلن اللومبارد بأن جيش قبرص قد فرّ، وبناء عليه بعثوا إلى قبرص السير عموري برلياس، والسير عموري صاحب بيسان، والسير هيوج صاحب جبلة ورجالهم، والكونت رتشارد الذي كان من اللومبارد، وقد استولى هؤلاء على جزيرة قبرص فيما عدا قلعة ديودامور، حيث اعتصم أخوات الملك وشعب البلاد، وبعد هذا استولوا على سيرينا، وقبل أن تسقط سيرينا كان السير بالين دي إيبلين قد أعد بشكل سري جداً، أن يقوم الجنويون، الذين قدموا إلى طرابلس في مركبين طويلين، بالالتحاق بخدمته وأن يصبحوا من رجاله، وقد أعطاهم إقطاعيات، وعقدوا معه ميثاقاً بأنهم سوف ينقلونه إلى قبرص، ووافقوا على أنه إذا ما استطاع المغادرة سوف يتمكن من غلبة الذين كانوا في قبرص وإخضاعهم، وعلم أمير طرابلس بالأمر، فاعتقل الرجال والسفينتين بالقوة، ومنع مغادرتهم (١٧٤).

١٠١ ( ١٧٠ ): ولسوف تسمع الآن أخبار مولاي صاحب بيروت، الذي كان قد ذهب إلى عكا، وقد تولى عرض الأمور، وأظهر منطقاً عظيماً إلى شعب البلاد، الذي خاف من تسلط اللومبارد، وأن ذلك سوف يجلب الدمار إليهم، وبناء عليه جعلوه مقدم«كومونة»عكا (١٧٥) والتحق الجنويةعن طواعية ورغبة به، ودفعهم إلى هذا حبهم الشخصي له، ولأن الامبراطور فردريك كان قد بعث بأوامر إلى سورية قضت بوجوب اعتقالهم شخصياً مع بضائعهم( ١٧٦ )، وبذل صاحب بيروت جهوداً عظيمة حتى تمكن من تأمين أسطول كبير( ١٧٧ )، ووصلت أخبار هذا إلى اللومبارد، فبادروا إلى إحراق آلاتهم وتخلوا عن حصار بيروت، وهربوا مجللين بالعار، من هناك، إلى صور .

١٠٢ ( ١٧١ ) : وعندما باتت هذه الأخبار معروفة في طرابلس، وجد السير بالين المزيد من الأصدقاء، وحصل على أمان العبور، وبناء

عليه سافر من هناك وتوجه إلى بيروت، فوجد المكان قد تعرض لتخريب كبير،ولهذا حزن وشعر بأسف عظيم، لكنه استقبل ببهجة عارمة وبتحيات حارة، وانتظر هناك أوامر مولاي صاحب بيروت، أي أوامر أبيه .

١٠٣ ( ١٧٢ ): وأقلع الملك هنري وصاحب بيروت وجميع جيش القبارصة من عكا باتجاه قلعة ايمبرت( ١٧٨ )، وقد سمعوا بأخبار التفريج عن بيروت، ولذلك أقاموا هناك وانتظروا للتشاورحول ما ينبغي أن يفعلوه(١٧٩)، ووصل إليهم في اليوم التالي بطريرك أنطاكية الخائن، الذي كان من اللومبارد( ١٨٠ )، وكان قد اجتاز بمدينة صور، وتحادث هناك مطولاً مع اللومبارد، وجعل من المفهوم من قبل الملك هنري وكذلك من قبل صاحب بيروت، أنه يمتلك صلاحية كاملة وتفويضاً من قبل اللومبارد، لإقامة صلح فيما بينهم، وأن الصلح الذي يعد له سيكون لتمجيد الملك وصاحب بيروت والقبارصة والسوريين ، ويتماشى مع رغباتهم، وقام الرجال النبلاء، الذين لم يرفضوا قط مصالحة معقولة، وهم الذين أقاموا المصالحة من قبل عن طواعية في وقت امتلكوا فيه التفوق، لقد قام هؤلاء باتباع البطريرك إلى عكا، وقد تشاوروا معه وتناقشوا، كما لحق به بعض خيرة رجال الجيش وأفضلهم، وكان جزء كبير من الجيش مايزال في عكا، ولم ينطلق بعد للالتحاق بالذين تقدموهم، وكان الأسطول مايزال بالميناء بسبب الأخبار التي سمعوها عندما وردت من بيروت .

١٠٤ ( ١٧٣ ) : وكان الملك هنري قد بقي في قلعة ايمبرت داخل معسكره مع عدد قليل من الرجال، ومع هذا كان معه الأولاد الثلاثة لمولاي صاحب بيروت أي: السير بلدوين، والسير هيوج، والسير غي، الذي صار فيما بعد قسطلان قبرص( ١٨١ )، وكان غي هذا رجلاً نبيلاً وشجاعاً، كما كان هناك السير جون دي إيبلين، الذي غدا فيما بعد

كـونت يافـا، وكان وقتهـا فارسـاً جديـداً، له مـن العمر سبع عشرة سنـة فقط، وكان هنـاك أيضاً السير آنسيو، الذي كان قـائداً للجيش في مكان مـولاي صـاحب بيروت، وكـانـوا معسكـريـن بشكل سيء، واحـد هنـا، وواحـد هنـا، دون أن يخشوا أحـداً، وفي الحقيقـة كـانوا قـد قـالـوا بأنهم ذاهبون للاستيلاء على صور .

١٠٥ : وتجسس اللـومبارد الذين كـانوا في صور عليهـم، وعلموا أنهم كانوا معسكريـن بشكل سيء، وأنهم كانوا يتكونون من حفنـة من الرجال فقط، ولهذا انطلقـوا من صور وقت حلـول الظلام، وجلبـوا معهم شعب صـور بالقـوة، وكانـت الأحوال الجويـة جيدة في البحـر، وقد جـاءوا على ظهـر اثنين وعشرين من الغـلايين، ونزلـوا عنـد قلعة إيمبرت، وهـاجموا جيش القبـارصة خلال الليـل ووجدوهم نيـاماً وغير مسلحين ( ١٨٢ )، وكان بعض الـرجال قد أخبروا السير آنسيو بـأن اللومبارد كانـوا قادمين، لكنه لم يصـدقهم، كما أنه لم يتنـازل بنشر الخبر، ولهذا يستحق لـوماً كبيراً، ولم يكن هنـاك رجال مثلهم فـوجئوا فـدافعوا عن أنفسهـم أحسن منهم، فقـد قـام أولاد مـولاي صاحـب بيروت: السير بلـدوين، والسير هيـوج، والسير غي بـأعمال قتـاليـة إعجازيـة، وقـد جـرح السير بلـدوين هنـاك جراحة خطيرة، وكذلـك ابن أخته السير جون، الذي كان شابـاً، فقد قام هناك بـأفاعيل جلبت لـه شهرة عظيمة طـوال حياته كلهـا، وأظهر السير آنسيو شجـاعة رائعة، ومـرد ذلك إلى الشجاعة التي تـوفرت لديـه، ولأنه كان القـائد، ولأنه عدّ نفسه مجرمـاً، لأنه سمع بالأخبـار، ولم يقم بنشرها، ونجا الملك وهـو عريان تماماً تقـريباً، وقد وضع على ظهر فـرس، وهرب من هناك إلى عكا ( ١٨٣ ).

١٠٦ : ولم يخسر القبـارصة طـوال الليـل معسكرهـم، وقاتلـوا خـلال الليل كلـه، وكان بعـض القبارصـة يقـاتلون على الأقـدام، وبعضهم على ظهور الخيل لكن بدون سرج، وحمل بعضهم دروعـاً، وكان بعضهم الآخر

عراة، وكـان هناك عدد كبير منهم بـدون سلاح تماماً، وكـان بعضهم على ظهور خيـول بدون مقـاود، وبعضهم بلا رمـاح، وآخرون بلاسيـوف، ومع هذا وجهـوا ضربات عنيفـة للومبارد وقتلـوا عدداً كبيراً منهم، وعنـد بزوغ فجرالنهار نزل الذين كانوا في الغـلايين، وأظهر ضوء النهار كم كان عدد القبـارصة قليـلاً، وهكذا تمّ الاستيـلاء على المعسكر، ومـن ثم نهبه كلـه، وكانت هنـاك خسارة كاملة لجميع الخيـول، باستثناء الخيول التـي كانت مـركوبـة، فهـذه نجت، وقد أسروا أربعـة وعشرين فـارسـاً، وقتلوا عـدداً صغيراً، وكـان عـدد الجرحى كبيراً، وجـرى الاستيـلاء على المعسكـر كلـه وعلى غالبية الأسلحـة، ووقف فرسان القبارصة الـذين دافعوا عن أنفسهم بشكـل جيـد، على رابيـة صغيرة تبعـد حـوالي رميـة سهم زنبـورك عـن المعسكر، ورآهم اللومبارد بكل وضوح، غير أنهم لم يقتربوا منهم .

١٠٧ ( ١٧٥ ) : ووصل الملك هنـري إلى عكا، ولدى سماع صـاحب بيروت للأصوات خرج ومعه الذين رغبـوا باتباعه( ١٨٤ )، وهم يشعرون بالحزن وبالألم، وكـان أول عمل قاموا به هو استقبـال الملك، حيث شكر صاحب بيروت الرب على وصـوله، ثم تقدموا لاستقبال الـرجال الآخرين الـذين كـانوا فـارين، وعنـدما رآه( صـاحب بيروت) هـؤلاء، تخلـوا عن الطريق( ١٨٥ )، وبـدأ واحد من السيرجنديـة يقول بأنـه سيذهب ليرى فيما إذاكان أحداً من أولاد مولاه بين الفـارين، واعترض عليه مولاه قائلاً :« لاتفعل ذلك، سنجدهم كيفما كـان الحال، فهم لن يتجرأوا على الفرار بعيـداً، وهم لن يأتـوا إلى المكان الـذي من الممكن أن أكـون به»، وبعـد مسافة قصيرة إلتقى ( صـاحب بيروت) بواحد من سيرجنديتـه القدامى الـذي كان هـارباً: وبكـى هذا الـرجل وقـال له:« لقـد تم فقـدان جميع أولادك الرائعين، وهم الآن موتى»، وقال الرجل النبيل مجيباً له:«وماذا في ذلك، أيها الجبان الدنيء؟ وهكذا ينبغي أن يمـوت الفرسان وهم يدافعون عن أجسـادهم وشرفهم»، ومضـى في طريقـه إلى الأمام مسرعـاً، وعندمـا

وصل إلى قلعة إيمبرت رأى الذين كانوا وقوفاً فوق الرابية، وما أن رآه هؤلاء حتى نخزوا خيولهم وساروا خلف اللومبارد الذين كانوا وقتذاك ينسحبون .

١٠٨ ـ وما أن رأى اللومبارد الذين كانوا قادمين من عكا حتى شرعوا بالفرار، وعبروا مسرعين الشعب الجبلي لممر البوليان( ١٨٦ )، وهناك وجد صاحب بيروت رجاله، الذين انقضوا على كافة قوات اللومبارد، ولقد رأى وأدرك أن ذلك القتال وتلك المطاردة، لن تحققا شيئاً، لأن أعداءه كانوا قد دخلوا بالممر ولديهم كثير من الرماة ورماة القسي العقارة، ولهذا استدعى رجاله، وحمد الرب كثيراً أنه وجدهم أحياء، وأنهم تصرفوا بشكل جيد ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً جيداً، ووجد هناك جميع أصدقائه الأعزاء باستثناء ابنه السير هيوج، وقد وجده في بيت عسكري قديم كان في القلعة، ذلك أن فرسه كان قد قتل قرب ذلك البيت، وكان قد دخل هو وفارس آخر كان رفيقه إلى قلب هذا البيت، وحصناه بالحجارة حتى سمعا أصوات المنقذين، وكان من المعتقد أنه قد قتل أو أسر، ولذلك كان السرور عظيماً عندما وجد هناك .

١٠٩ ( ١٧٦ ) : وذهب اللومبارد إلى صور مع غنائم عظيمة، لأن الذين كانوا في الغلايين والذين كانوا على الأرض قد حملوا كل ما وجدوه، ولأنهم أخذوا أشياء تفوق الحصر ـ معظم الخيول،والأسلحة ،والتجهيزات التي عادت إلى القبارصة ـ بات موقفهم المضي في حملتهم، وأن أعداءهم لن يستطيعوا التعافي في قبرص، كما لن يتمكنوا من العبور إليها إلاّ بعد وقت طويل، ولهذا رتبوا القيام بشطر قواتهم، فقد تركوا حامية في مدينة صور، وعبروا على الفور إلى قبرص مع قوات كبيرة للاستيلاء على الجزيرة وقد أعانهم على ذلك أحوال مناخية موائمة فوق سطح البحر، وقد حدث هذا في سنة ١٢٣٢ ( ١٨٧ ) .

١١٠ ( ١٧٧ ): وما أن بات اللومبارد في قبرص حتى استسلمت

قلعة كنتارا إليهم، وقد حدث من قبل استسلام برج ميناء فيماغوستا إلى السير عموري صاحب بيسان، وإلى السير هيوج صاحب جبلة، وكذلك استسلام قلعة سيرينا إليهم، وهكذا لم يبق من جميع قلاع قبرص تابعاً لصاحب بيروت أو للملك هنري، غير قلعة ديودامور فقط، فإلى ذلك المكان كان قد توجه كل من أختي الملك( ١٨٨ )، والسير أرنيس صاحب جبلة( ١٨٩ )، الذي كان في ذلك الوقت وكيل الخازن ( ١٩٠ ) Secrete، وكان هناك أيضاً فيليب دي كافران(١٩١) Caffran، الذي كان القسطلان، والتجأ إلى المكان نفسه عدد صغير من الفرسان،و سيدات و فتيات، و كلهن تجمعهن هناك قبل أن يمتلكن الوقت لتجهيز أنفسهن، و كان مع الجميع أناس من بقية الشعب الذين امتلكوا زاداً قليلاً من الطعام، والأشياء الأخرى التي احتاجوها.(١٩٢)

١١١: غير أن معظم سيدات و فتيات و أطفال قبرص قد أخذوا على حين غرة،و لم يكونوا بالتالي قادرين على الذهاب إلى ديودامور، و هكذا التجأوا إلى الكنائس و بيوت الدين الأخرى، و كانت هناك كثرة كثيرة قد التجأت إلى الجبال، و هناك اختبأت أو في الكهوف، و ارتدت هذه السيدات ثياب الراعيات، و أولادهن ثياب أولاد الرعيان، و توجهت هذه النساء نحو العمل على قطف سنابل القمح التي توفرت هناك، و على هذه السنابل عاشوا هن وأولادهن وسط شقاء عظيم من المؤلم روايته، و التجأت اسشيف دي مونتبليارد(١٩٣)، التي كانت و قتذاك زوجة السير بالين دي إيبلين ابن مولاي صاحب بيروت، التجأت هي و أولادها إلى مقر الاسبتارية، و عندما سمعت بأن اللومبارد قد وصلوا تملكها خوف عظيم، فارتدت ثياب واحد من صغار الرهبان، و تخلت عن أولادها و اقطاعها، و صعدت إلى قلعة عرفت باسم بوفافينتو، و قد استقبلت هناك من قبل فارس عجوز اسمه غيونارت دي كونشي(١٩٤)، الذي كان مقيماً هناك لصالح الملك، و قد زودت

نفسها، و هكـذا شحنت بوفافينتو بـالأطعمة، و كانت القلعـة قبل ذلك لاتمتلك شيئاً.

١١٢: و قدم اللـومبارد مسرعين إلى نيقـوسيا، و قـد اقترفوا هنـاك كل الآثام و المفـاسد و الشرور التي عرفوهـا و كانوا قـادرين على اقترافها، و اقتحموا الكنـائس و بيت الـدواية مع بيت الاسبتـارية، و جميـع البيوت الدينية، و سحبـوا و جروا إلى الخارج السيدات و الأطفال الـذين تعلقوا بالمذابـح و بالكهنـة الذين كـانوا ينشدون القـداسات، وحـدث في تلك الأثناء أنهم قاموا في أحـد الأماكن فانتزعوا من يدي الكـاهن جسد ربنا، و رموا بالقربان المقدس على الأرض، وقد وضعوا السيدات و الأطفال في عـربـات و على ظهـور الحمير بشكل مهين جـداً، و بعثـوا بـالجميـع إلى سيرينا للسجن هناك، والتقطـوا بالخطا طيف الذين رفضـوا الذهاب على الفور، و كان اللومبارد قد استـولوا على سيرينا، و جلبوا إلى هناك كميات كبيرة من المؤن، ذلك أنهم أرسلوا بغلاييـنهـم و بمراكبهم إلى ذلك المكان كل ما وجدوه على طول سواحل قبرص.

١١٣(١٧٩): و توجه اللـومبارد مع الخونة الآخرين لحصـار ديودامور، و قد طوقوها و ضغطوا عليها عن قرب، ذلك أنهم عرفوا أن الذين كانوا فيها كانوا مزودين بقليـل من المؤن، وقد بعثوا إلى الحصار، و الضغط على القلعة بلا هوادة، أكثر الناس عداء لكل من الملك و صاحب بيروت، و هكذا بعثوا بما لا أعـرف عدده من طواقم رماة القسي العقـارة، و حانثي الأيمان و الخونة الـذين فروا من جيش القبـارصة و قصدوا جبلة، عنـدما مرّ جيش القبارصة أمامها، و هو على طريقه للتفريج عن بيروت.(١٩٥)

١١٤(١٨١): و أكمل الآن الملـك هنري السنـة الخامسـة عشرة من عمره،(١٩٦) و بات قادراً على التصرف حسب رغباتـه بحكم كونه سيداً قـد وصل إلى السن القـانونيـة، ووعـد بناء عليـه بمنح عـدة اقطاعيـات للذين كانـوا معه، ووعد الجنويين بإعطائهم امتيـازات إعفاء و محكمة في

مملكة قبرص(١٩٧)، إذا ما استمروا بصحبته فقط حتى يصل إلى قبرص، و مثل صاحب بيروت، الذي كان آنذاك مقدم «كومونه» عكا، حسبما أوردنا خبر ذلك من قبل، أمام البطريرك جيرولد، بطريرك القدس، و كان ذلك بحضور الملك هنري و عدد كبير من الرجال الذين كانوا هناك وتشكى للبطريرك، الذي كان أيضاً النائب البابوي،(١٩٨) بسبب الأضرار التي ألحقها اللومبارد بالملك و به شخصياً، فيما يتعلق بالمسألة التي رويت أخبارها أعلاه، وكان من بين المسائل التي تولى عرضها هو أنه ذكّر الناس وأخبرهم كيف أن اللومبارد كانوا قد استولوا على اسطول الملك بأجمعة، عندما جاء الملك من قبرص، لأن الملك كان قد أرسل السفن التي نجت من البترون إلى قبرص، فهولاء قد استولوا على هذا الاسطول، و على جميع السفن التي بقيت، و استولوا كذلك على مملكة قبرص، لابل أكثر من هذا لقد حاصروا أختي الملك في إحدى القلاع، و يرغب الملك بالذهاب للتفريج عنهما، لكنه لايمتلك اسطولاً يلبي حاجته، و هناك الاسطول الذي قدم به اللومبارد ، و هو موجود في ميناء عكا، و لهذا فإنه يطلب من البطريرك، بحكم كونه النائب البابوي، أن يأمر بالترخيص له بأخذ سفن الاسطول الراسية في ميناء عكا، لأن أصحابها من المحرومين كنسياً، ومن الذين هاجموا قلاع المسيحيين، والذين انتزعوا من الملك اسطوله و مملكته.

١١٥: ورد عليه البطريرك الطيب بأنه لايرغب بالتدخل بمسائل الحرب و السلام، لكنه قال بأنه رأى في احدى المناسبات في بلاده عندما كان صيادون يصطادون فرائسهم، وكانت الحيوانات كثيرة، كانوا يجلبون كلاب صيدهم، ويشيرون بأيديهم، ويقولون لهم: « اذهبوا وخذوها»، و عندها ركض الفرسان و السيرجندية و البوليان(١٩٩) الذين كانوا في الميناء، نحو البوارج و السفن الصغيرة التي وجدوها في الميناء، ثم

قصـدوا سفن الاسطـول،واستولـوا بالقـوة على ثـلاث عشرة سفينة منهـا، بمشيئة الرب، أمـا السفن الأخرى وما بقي من سفن الأسطـول فقد هرب الجميع إلى صـور(٢٠٠)، و جنـد الملـك هنـري و صـاحب بيروت أكبر عدد من النـاس قدروا على تجنيده(٢٠١)، و لهذا أقدم صاحـب قيسارية الشاب على بيـع جزء من بـلاده في قيسارية، وكـذلك فعل مـولاي جون دي إيبلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، حيث باع قرية كبيرة امتلكها و كـانت في عكا(٢٠٢)، وأقـرضوا المال إلى الملـك، وقام عـدد كبير من بوليان الميناء بتجهيزأنفسهـم بسرعة و انطلقوا(٢٠٣)، هذا و لست أدري كم عـدد السفـن المسلحـة التي امتلكـوهـا، هـذا وقـد أعطـاهـم الملك اقطاعيات مقابل الخدمات التي قدموها له في البحر .

١١٦ (١٨٢ ) : وأقلعوا من عكـا للقيام برحلتهم( ٢٠٤ )، وقـد مروا أمـام صور بسفنهـم، وخرجـت سفن اللـومبارد التـي قدمـت من قبرص لمحـاربتهم، وأطلقت أشرعتهـا للريـح، لكنها لم تتجـرأ على الاقتراب من الجيش، ومـع ذلك ظلت هـذه السفن تتابـع إبحارهـا بالاتجاه المعـاكس للريح، وظلت تترصد الفرصـة لإلحاق الضرر بهم، ووصل جيش القبارصة إلى أمام صيـدا، وإلى هناك جاء السير بـالين الذي قدم من طـرابلس إلى بيروت مع الجماعـة التي سمينـاها أعـلاه( ٢٠٥ )، كما ووصل إلى هنـاك أخوه السير جون صاحـب فوغيا ومعه أيضاً جماعته التي سمينـاها أعلاه، وهي التي كانـت معه في قلعة بيروت، و...صاحب صيـدا( ٢٠٦ )، وقد أعطاهم الملك هنري ملك قبرص كثيراً من الإقطاعيات.

١١٧ ( ١٨٣ ): وأبحر القبـارصة من ميناء صيـدا، أمام تيار الـرياح، ووصلوا إلى قبرص، ونزلـوا في لى غري( ٢٠٧ ) Gree، وإقتربت في تلك اللحظة غـلايين اللومبارد منهم وكـانت تجري بالاتجاه المعاكـس للريح، وبعثوا أثنـاء الليل إلى البحر من يتجسس لمعـرفة مكان جيش اللـومبارد، وقـد علمـوا بشكـل مـؤكـد أن الجيـش مـع جميع قـواتهم مـوجـودة في

فيماغوستا، وأن غلاييهم راسية في الميناء .

١١٨ ( ١٨٤ ) : وزحف جيش القبارصة إلى أمام فيماغوستا، وكان اللومبارد في المدينة ولديهم أعداد هائلة من الرجال، وذلك من الفرسان والرجالة سواء، وكان لديهم الكثير من الخيول والسلاح مما كانوا قد استولوا عليه في قلعة إيمبرت مع ما كانوا وجدوه في قبرص، وكان معهم الخونة الذين تخلوا عن الملك عند ميناء القسطلان، وذلك حسبما روينا من قبل في هذا التاريخ، كما كان معهم رجال آخرين حصلوا عليهم من طرابلس وأرمينيا، وتوركبليه جنّدوهم من قبرص، وبناء عليه كان من المقدر بشكل صحيح أنه كان لديهم ألفي فارس في جيشهم، وكان لدى الملك هنري وصاحب بيروت مائتين وثلاثة وثلاثين فارساً .

١١٩ ( ١٨٥ ) : وعندما وصل جيش الملك هنري إلى أمام فيماغوستا، ابتعد قليلاً عن اليابسة، وراقب صاحب بيروت الأوضاع فرأى أن الساحل كان مشحوناً بشكل جيد بالرجال ضده، وكانوا جميعاً مسلحين، وأنه إذا ما حاول النزول إلى اليابسة سوف يتعرض إلى مخاطر شديدة، ولاحظ وجود جزيرة أمام اليابسة حيث كانت هناك مخاضة يمكن للإنسان أن يجتازها إلى اليابسة عندما تكون المياه في أدنى درجات انخفاضها من جانب اليابسة، وذلك عندما يكون البحر هادئاً، ونزل جيش القبارصة في هذا الجانب مع خسائر فادحة بسبب الصخور التي كانت هناك، وبادروا على الفور مسرعين نحو رأس الجزيرة المقابل لليابسة، حيث توفرت المخاضة، ومركزوا هناك عدداً من الرجال المسلحين ليتولوا حراسة المخاضة حتى يكونوا جميعاً قد غادروا السفن، وتهيأوا تماماً.

١٢٠: وأطلق رجال الامبراطور الجروخ باتجاه ذلك المكان، وقدموا كل ما استطاعوه من مقاومة،واستخدموا القسي العقارة، وكان هناك الكثير من رمايات الحراب والنشاب من على الطرفين، ومع ذلك رسا القبارصة

ونزلوا إلى اليابسة صغيراً وكبيراً وفق ما أرادوا، وكان بإمكانهم مع خيولهم المعسكرة على الجزيرة، وقد تولوا الحراسة طوال الليل بشكل جيد، وركزوا اهتمامهم على المخاضة التي يتوجب عبورها إلى أرض الجزيرة القبرصية، وأرسلوا بعد منتصف الليل بوارج ومراكب صغيرة مسلحة إلى الميناء، وبادروا من هناك مسرعين إلى واحد من أماكن المدينة، وكان الجيشان عظيماً، ثم ألقى اللومبارد النار بجميع سفنهم التي كانت في الميناء، وتخلوا عن المدينة وهجروها، وامتطوا خيولهم ومضوا إلى نيقوسيا، وبادر جيش الملك بالزحف مسرعاً، واستولى على مدينة فيماغوستا في أثناء الليل .

١٢١ ( ١٨٦ ) : وقام في الصباح التالي الملك وقبارصته بتسليح أنفسهم، وإعداد خيولهم، وامتطوها وعبروا المخاضة إلى أرض الجزيرة وهم على تعبئة، وكانوا يتوقعون مواجهة مقاومة أثناء عبور المخاضة، لكنهم لم يواجهوا أي شيء من هذا النوع، وهكذا وصلوا إلى مدينة فيماغوستا، وأقاموا هناك لمدة يومين أو ثلاثة ليريحوا أنفسهم، وكان اللومبارد قد تركوا برج البحر مشحوناً بالرجال، وتعامل الملك معهم ومنح القادة إقطاعات، وبذلك سلموا إليه برج ميناء فيماغوستا، وقدم إليهم إلى هناك ثلاثة رجال قدموا أنفسهم إلى الملك، وكانوا هم الذين يتولون حراسة كنتارا لصالح اللومبارد، وقد أعطاهم الملك الذي طلبوه، وبالمقابل سلموا إليه كنتارا مع بوفافينتو( ٢٠٨ )، وسامح صاحب بيروت وأولاده واحداً منهم، اسمه همفري دي مونياري Monaigre، وكان قد سبب لهم شروراً كثيرة، وكان الذي تدبر استرداد كنتارا وبرج فيماغوستا وأعدّ لذلك هو فيليب دي نوفار.

١٢٢ : وبقي ملك قبرص ثلاثة أيام( ٢٠٩ ) في فيماغوستا، عالج في أثنائها الأمور مع قائد الجنويين( ٢١٠ )، الذي كان اسمه السير وليم دي لى أورت Ort، وكان هو بالوقت نفسه قنصل الجنويين، ورجلاً ثرياً (

٢١١ )، وقد منحه الملك كل الذي أراده وطلبه: فهو قد منح إلى الجنويين في جميع أرجاء قبرص امتيازات إعفاءات ومحكمة، باستثناء النظر في ثلاثة أمور قضائية تعلقت بالقتل، والاغتصاب الجنسي والخيانة ( ٢١٢ )، وأعطاهم داراً في نيقوسيا، ومحكمة ذات صلاحيات بحرية( ٢١٣ )، وقلعة اسمها دسبوير( ٢١٤ ) Dspoire وضمنوا تعهداتهم للملك بيمين أقسموه، وكذلك فعل الملك لهم، وتعلقت هذه التعهدات بالعون، وشروط التحالف (٢١٥ )، هذا وكان ما منحهم الملك هنري إياه له استمرارية دائمة وكان ذلك عن طواعية ورغبةمنه ومن مولاي صاحب بيروت، وصعد الجنويون ثانية إلى ظهور سفنهم، وذهبوا إلى ليماسول، وكانوا هناك عندما علموا بأخبار المجد الذي منحه ربنا فيما بعد إلى ملك قبرص وإلى رجاله، وعندما علموا بهذا ذهبوا إلى جنوى، وكانت سفن اللومبارد طوال هذا الوقت في مياه قبرص وكانت مدركة لما كان يحدث، غير أنها لم تتجرأ قط على لمس السفن .

١٢٣ : وعندما باتت سفن( الجنويين) في أعالي البحار، جاءت سفن اللومبارد إلى سيرينا، التي كانت ما تزال بأيدي اللومبارد ( ٢١٦ )، وكان جيش اللومبارد عندما غادر فيماغوستا قد أحرق الحظائر والمخازن والسهل كله، وقد سبب هذا أضراراً بالغة، لأن معظم الحبوب كانت في المخازن، وقد حطموا جميع المطاحن في لى كويتري Quetrie (٢١٧)لابل إنهم دمروا حتى المطاحن اليدويةفي نيقوسيا، وذلك بقدر ما استطاعوا، ولدى سماع القبارصة بهذه الأخبار شعروا باطمئنان عظيم، وقالوا إنه لمن الواضح تماماً لو أنهم خططوا للاستمرار باحتلال البلاد لما فعلوا ذلك، وقد منح ربنا نعمة لامثيل لها للقبارصة، ذلك أنهم كانوا قليلين جداً بعددهم من الرجال إلى حد أنه بدا بالنسبة لهم أنهم ما أن يلقون اللومبارد سوف يهزمون من قبلهم لامحالة .

١٢٤ ( ١٨٧ ) : وغادر الملك هنري وصاحب بيروت ومعه قومه

فيماغوستا ، ووصلوا خلال عدة أيام إلى نيقوسيا بعد ما لحقت الأضرار الكبيرة بتجهيزاتهم وبمعداتهم، وبعدما تبقى معهم عدد قليل من الرجال، وتخلى اللومبارد عن المدينة، وعسكروا في الوادي فيما بين جبلين عاليين على الطريق إلى سيرينا، وكان موقع معسكرهم جيداً وحصيناً إلى حد أن ما من واحد كان قادراً على الوصول إليهم إلاّ عبر طريق ضيق فوق جبل عظيم، وكان الممر هناك مدافعاً عنه بشكل ممتاز، كما أنه لم يكن بإمكان القبارصة التفريج عن قلعة ديودامور ونجدتها إلاّ عبر هذا الطريق نفسه، وامتلك اللومبارد كل ما احتاجوه في جانب سيرينا، في حين كان المتبقي من أغذية في قلعة ديودامور يكفي ليومين فقط .

١٢٥ ( ١٨٨ ) : ودخل الملك هنري وصاحب بيروت مع رجالهم إلى نيقوسيا حيث وجدوا القليل مما كانوا بحاجة إليه، وكان هناك نقص شديد بالخبز، وكان صاحب بيروت قلقاً جداً لأن رجاله قد تشتتوا بشكل أحمق وعسكروا في أرجاء المدينة، وخاف من أن يقوم أتباع اللومبارد بمهاجمة رجاله أثناء الليل، لذلك قام في وقت العشاء باستنفار الجميع وقال بأن اللومبارد في طريقهم إليهم، وبناء عليه خرج الجميع ووقفوا خارج نيقوسيا ( ٢١٨)، وما أن أصبح الرجال خارج المدينة وقد تعبأوا واصطفوا للقتال، حتى أعلن لهم صاحب بيروت بأن اللومبارد قد تراجعوا وذهبوا، ثم قام باسم الملك بمنع كل واحد من الجيش من دخول المدينة، وقد اختار أفراد الجيش بقعة خارج المدينة( ٢١٩ )، حيث توفرت حدائق على أحد الجوانب وخندق صغير، وعسكروا هناك تلك الليلة، وتحرزوا كثيراً بالحراسة، وأقاموا مراكز رصد وإنذار جيدة، ذلك أنهم تذكروا بشكل جيد قلعة إيمبرت .

١٢٦ ( ١٨٩ ) : وفي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم ثلاثاء (٢٢٠)، انطلق القبارصة، ووافق هذا اليوم مرور أكثر من خمسة أسابيع على وقوع حوادث قلعة إيمبرت، واقترح الملك وصاحب بيروت مع

مستشاريهم وجوب ذهابهم إلى السهل الواقع دون معسكر أعدائهم، فإذا ما انحدر اللومبارد نحوهم، فتلك كانت رغبة القبارصة بإنشاب القتال، وإذا لم يفعلوا فإنهم سوف يعسكرون في قلعة اسمها أغريدي، قائمة قرب مكان واقع عند سفح الجبل، فمن هناك يمكنهم أن يبعثوا خلال الليل التطمينات والمعونة إلى الذين في ديودامور بواسطة رجال يسيرون على الأقدام عبر ممر ضيق ومنزلق قائم فوق القلعة، وتنفيذاً لهذا الاقتراح زحف القبارصة حتى وقفوا فيما بين اللومبارد وأغريدي( ٢٢١)، وما أن رأى اللومبارد من الأعلى كيف أن القبارصة كان عددهم قليل، وكيف أن تجهيزاتهم كانت فقيرة حتى استخفوا بهم، ورأوا أنه من العار تجنب الإقتتال معهم، وصرخوا جميعاً بصوت واحد: « عليهم، عليهم، دعونا نذهب ونأسرهم» .

١٢٧ : ثم ترجل صاحب بيروت، وجثا على ركبتيه، وحمد ربنا، أن الأعداء انحدروا نحو الاقتتال، لأنه كان يعرف كما قال بأن ذلك معناه سيكون تحرير( شعبه)، وأن ذلك خير ما يمكن أن يحدث لهم، وقد صلى بخشوع وطلب من ربنا أن يمنح في ذلك اليوم المجد والنصر إلى الملك وإلى حزبه، وقد نذر في تلك الساعة بشكل سري ـ الأمر الذي نفذه فيما بعد ــ أن ينتسب إلى واحد من البيوت الدينية، وقام بتعبئة صفوف قواته بشكل مبدع، وكان ابنه السير بالين دي إيبلين قد قاد دوماً في هذه الحرب الصف الأول من القوات، وقد جعله في هذه المرة يأتي ويقف أمامه ، وطلب منه أن يقسم على إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة، ذلك أنه كان تحت الحرمان الكنسي بسبب زواجه، وقد ردّ عليه أن ليس بإمكانه الاستجابة لهذا الطلب، ورد عليه الرجل النبيل وقال:« بالين لدي ثقة وإعتماد على الإيمان بالرب أكثر من الاعتماد على فروسيتك والثقة بها، وبما أنك على غير استعداد للاستجابة لطلبي، اترك الصف، لأنه إرضاء للرب، سوف لن يكون رجلاً محروماً قائداً لقواتنا»، فهذا ما كان قد قاله

وهذا ما جرى تنفيذه .

١٢٨ : وأقام قائداً للصف الأول من القوات السير هيو ابنه، وجعل السير آنسيو دي بري قائداً للصف الثاني بعده، والسير بلدوين دي إيبلين قائداً للصف الثالث، وصاحب قيسارية الشاب قائداً للصف الرابع، وهو صف ساقة الجيش،ذلك أنه لم يمتلك صفوفاً أكثر( ٢٢٢ ).

وكان في صف الساقة هذا الملك، وصاحب بيروت، وابن أخته الشاب السيرجون وعدداً كبيراً آخر ممن رغبوا في أن يكونوا في الصف الأول، وأمر صاحب بيروت ابنه السيربالين أن يكون معه في ساقة الجيش، وقال له:«باسم الرب»، غير أنه فعل عكس ذلك، حيث تخلص من مكانه، وذهب إلى الصف الأول حيث كان أخاه السير هيوج والسير آنسيو، فقدم لهما النصيحة، وأراهما الذي عرف أنه مفيد ونافع، ثم إنه تركهما ووضع نفسه أمامهما على الطرف، وكان معه عدد قليل من الرجال، لأنه كان آنذاك خمسة من الفرسان فقط هم الذين يتكلمون معه، فقد أقسم الآخرون جميعاً على احترام أوامر الكنيسة المقدسة، ومن أولئك الخمسة كان فيليب دي نوفار واحداً منهم، وكان الآخر هو ريموند دي لى فليس Flace، فهذان كانا من أتباعه، وقد تسلما إقطاعهما منه، وكان بيتر دي مونتوليف Montolif هو الثالث، وكان مدفوعاً له ومعطى أشياءً من قبله، وكان الاثنان المتبقيان هما روبرت دي مومني Maumeni، ويودس دي لى فيرتي Fierte، وكان هو الذي رباه وجعله فارساً ( ٢٢٣ ).

١٢٩ ( ١٩٠ ): وعندما اقتربت مقدمة قوات أول مجموعة من اللومبارد من كتلة مولاي صاحب بيروت والملك، اندفع السير بالين نحو بقعة خطرة جداً، مشكلة من صخور وحجارة، ومضى إلى قتال الآخرين فوق في وسط الممر، وقد أعاقهم كثيراً، وقام بأعمال قتالية رائعة، إلى حد أن ما من إنسان كان قادراً على دخول هذا الممر أو مغادرته

وجـوازه، وصبر كثيراً وتحمل إلى درجة أن جميـع الذين رأوه يشهـدون أنهم عاجـزين عن التصـديق أن رجـلاً واحداً قـد استطاع قط أن يفعـل مثل هذه الأفاعيل، وكثيراً مـا ضغط عليه بعدد كبير من الرمـاح، حتى أنه ما من واحد صـدق أن بإمكانه النجـاة مطلقاً، ورآه الذين كـانوا في الأسفل مع الملك وعرفـوه وميزوه تماماً من خلال سلاحـه، وصرخ كل واحد منهم إلى مولاي صـاحب بيروت قائلاً: «آه يـامولاي، دعنا نعـاون السير بالين، لأننا نـرى أنه سـوف يقتل فـوق في الأعلى»، وأجابهم (صـاحب بيروت) بقولـه:« دعوه لوحـده، الرب سوف يعينـه، فهذا يرضيـه، ولسوف نمتطي خيولنـا، ونمضي مباشرة إليـه، ذلك أننا إذا مـا انحرفنـا جانبـاً يمكن أن نخسر كل شيءٍ، وكان القتـال شديداً على كـل جانب في تلك السـاعة، واستمر طويلاً، وسقط وقتذاك العديد .

١٣٠ : وقـاد الكونت وولتر مينبـو(٢٢٤) Manepeau الـرتل الأول من قـوات اللومبـارد، وقد قـاتل بقسـوة متناهيـة، وصمد لجميع صفـوف الملك، وانقـض عليهم بشـدة وحدة ومـر من خـلالهم وتجاوزهم بعيـداً، لكـن دون إحـداث أضرار كبيرة، وأراد بعض الـذيـن كـانـوا في صفـوف الملك مهاجمتـه، لكن صاحب بيروت منعهم بحكمة، وحظـر أن يقوم أي واحد من الالتفات إلى طرف ما، أو الانحـراف إليه، ووجوب متابعة حملة الفرسـان، لأن الفرسـان يحملون بالعـادة باتجاه مباشر، وتخلى عـن القتال، وانحرف نحـو الرتل الـرابع الكـونت وولتر والسير جو فـري دي موسي( ٢٢٥ ) Mosie، ابن متسلم العدالـة، وكان معهما جميع قواتهما( ٢٢٦ )، وقـد هـربـا من هنـاك حتى كـاستريـا( ٢٢٧ )، دون القيـام بأيـة أعمال أخرى، وكان الكـونت بيرارد دي مينوبي( ٢٢٨ ) Menope، الذي قاد الرتـل الثاني فارسـاً مجرباً وتحت إمرتـه مقاتلين جيدين، وقـد حمل بشكل فعـال جداً، وضعضع الـرتل الأول مـن قوات القبـارصة، لكـن عساكـر السير بلـدوين سـاعدوهـم بثبات وتصرف الكـونـت بلدويـن بشجاعـة

وحكمة، وقام بأعمال قتالية عظيمة .

١٣١ : وجارى السير آنسيو دي بري الكونت بيرارد، وأمسكه من خوذته، وحرفه نحو اليسار، ولقد كان قوياً جداً ولديه حصان ممتاز، ولذلك اقتلع الكونت بالقوة من على سرج حصانه، ورماه أرضاً، وصاح«اقتل، اقتل»، ثم وصل وقتها إلى ذلك المكان ما بين الخمسين إلى الستين من السيرجندية، وهم يسيرون على أقدامهم، وكان هؤلاء قد بعثهم القبارصة من قبل إلى أغريدي لإقامة المعسكر، وقد قطعوا رأس الكونت بيرارد، ومعه رؤوس سبعة عشر فارساً من حاشيته وآل بيته، كانوا قد ترجلوا لإقامته، وسرت كلمة«اقتل، اقتل» بين صفوف الجيش، وصرخ الجميع«اقتل، اقتل» .

١٣٤ : وكان في هذه المعركة فارس بين اللومبارد، قيل بأنه كان ألمانياً، وكان مغطى هو وفرسه بمعدن مذهب، وقد قام بعدة حملات، ونفذ أفاعيل قتالية عديدة، وكان قوياً جداً ونشيطاً، لذلك لم يستطع أحد قهره وإسقاطه، لكن في النهاية قتل حصانه، وألقى المقاتلون الرجالة أنفسهم عليه وقتلوه، وكان عدد كبير من فرسان القبارصة قد عبروا في حملاتهم عن بسالتهم، وكان عدد الرجال كبيراً بين اللومبارد الذين خاضوا منازلات مريرة، وكانوا بالفعل رجالاً عظماء، وعلى جميع الأحوال قام الرب بمعجزات عظيمة، لأنه قتل من بين صفوف القبارصة فارس واحد فقط، كان قد ولد في لومباردي ونشأ في قبرص وفيها رسم فارساً، وظل كلامه كلاماً لومبارديا، حتى أنه لم يكن بإمكانه أن ينادي الملك بكلمة Vaillance، بل صرخ Baillance، ولهذا السبب قتل، حيث ظن أنه من اللومبارد( ٢٢٩ ) .

١٣٣ ( ١٩٥ ): ومنح الرب مجداً عظيماً وأظهر نعمة كبيرة إلى الملك هنري وإلى صاحب بيروت وإلى حزبهم، حيث تمكنوا في ساعة واحدة من النهار من إلحاق الهزيمة بأعدائهم الأقوياء وساقوهم بعيداً

وطردوهم، وقد فرجوا عن ديودامور التي كانت محاصرة، وقاموا بمحاصرة سيرينا التي التجأ إليها اللومبارد، وهرب السير جندية الذين كانوا يحاصرون ديودامور لصالح اللومبارد، وفروا من هناك، لكنهم لم يتجرأوا على الفرار باتجاه سيرينا خشية من القبارصة، الذين كانوا يتولون حصارها، ولهذا تشتتوا بإتجاه بليسي Plassie (٢٣٠) ومن ثم انعطفوا باتجاه نيقوسيا، ولم يتجرأوا على دخولها في النهار، بل أرادوا دخولها في الليل على أمل العثور على ملاجىء في بيوت الرهبانيات الدينية .

١٣٤ : وحدث آنذاك أن فيليب دي نوفار، كان قد عاد إلى نيقوسيا للقيام ببعض الأعمال التي أمره بالقيام بها الملك هنري وصاحب بيروت، وقد علم بأن السيرجندية قادمون، فحشد ما أمكنه من الرجال، وخرج للتصدي لهم خارج المدينة، وقبل منتصف الليل بقليل إنقض فيليب دي نوفار عليهم ومعه رجاله فقتلوا وأسروا ثلاثمائة أو أكثر من السيرجندية، والذين نجوا منهم بسبب أن الوقت كان ليلاً، وجدوا مأوى لأنفسهم في الكنائس وبيوتات الرهبانيات الدينية، وأمر فيليب أن يمثل أمامه قادة السيرجندية الثلاثة الذين كانوا قد تخلوا عن الملك وعن صاحب بيروت أمام جبلة، ذلك أنهم كانوا خونة وحانثين باليمين ، فأمر بهم فمزقوا( ٢٣١ )، وكان بوده القيام بشنقهم، لكنه لم يمتلك الفرصة، لأن ما توفر لديه من الرجال كان قليلاً جداً من حوله، وكان عدد الأسرى هناك كبيراً جداً .

١٣٥ ( ١٩٦ ) : وصار معلوماً في اليوم التالي أن الكونت وولتر دي مينبو Manpeau وابن متسلم العدالة وجماعتهما قد التجأوا إلى خندق قلعة كاستري، لأن الداوية رفضوا استقبالهم في الداخل، لأنهم كانوا قد قاموا من قبل باقتحام بيتهم وجروا إلى خارجه السيدات والأطفال، حسبما تحدثنا عن هذا من قبل في سياق روايتنا، وبناء عليه بعث الملك وصاحب بيروت إلى هناك السير جون الشاب، الذي صار فيما بعد

كونت يافا، مع مجموعة من الفرسان بصحبته، وقد عثر عليهم داخل الخندق، فأخذهم أسرى، وجلبهم إلى نيقوسيا، ووضعوا هناك بالسجن مع الآخرين الذين أخذوا أسرى في يوم المعركة، وقد عهدبالإشراف عليهم جميعاً إلى فيليب دي نوفار، فهو الذي تولى حراستهم، وكان لديه في هذا السجن مائة وخمسة وأربعين سجيناً، وكان عدد كبير قد مات بسبب الجراحات، وكان ممن مات هناك السير هيوج دي سورل Sorel، والسير انتي دي شيلين Ente de cheligen، والسير غنت دي كور Gent de cors، غير أن السير فيليب أوبيسون Obuisson قد تعافى من جراحاته الشديدة( ٢٣٢ ).

١٣٦ ( ١٩٧ ): واستمرت أعمال الحصار أمام سيرينا، وكان الذين في داخلها رجالاً عظماء جداً، وكان لديهم جميع سفنهم التي جاءوا بها إلى قبرص، ولديهم أيضاً اثنين وعشرين من الغلايين، وقد عمدوا إلى تعيين قائد يتولى حماية القلعة وأسوارها هو فيليب شينارت( ٢٣٣ )، الذي كان أخاً للسير جوفيان من جهة أمه، وقد تركوا فيها خمسين فارساً، وضعوهم تحت قيادة شخصية من أبوليا اسمه وولتر أكوفيفا( ٢٣٤ )، وكان السير رتشارد فيلنغر الوكيل قد ذهب إلى أرمينيا مع عدد كبير من الرجال طلباً للعون، كما بعثوا إلى أنطاكية و طرابلس، و قالوا إنهم سوف يقدمون ثانية و يقاتلون مجدداً ضد القبارصة، و كان في أرمينيا مرض كبير فيما بينهم، و قد عادوا إلى سيرينا دون انجاز أي شيء، و قالوا هناك العديد من الرجال في البر و البحر، وسوف هؤلاء يستهلكون معظم أطعمة القلعة، و لهذا السبب عاودوا الصعود إلى ظهور سفنهم و غلاييهم، وأبحروا عائدين إلى صور، و ذهب مع وكيلهم فيلنغر السير عموري برلياس، و السير عموري صاحب بيسان، ابن عمه، و السيرهيوج صاحب جبلة،وبقي فيلنغر(٢٣٥) وكيلاً في صور، أما هؤلاء الثلاثة فقد ذهبوا إلى أبوليا يطلبون العون من الامبراطور.

١٣٧(١٩٨) :و بقي فيليب شينارت القائد في سيرنيا، و معه خمسين فارسا وحوالي الألف رجل من المشاة: من رماة الزنبورك و البحارة،وكان لديه هناك عدداً كبيراًمن صناع الآلات الحربية، و قد صنع بوساطتهم عدداً من أبراج القتال، وآلات رمي الحجارة و المجانيق، و تمكن من حماية القلعة بشكل جيد لوقت طويل، و كانت زوجة الملك في القلعة، و هي التي عرفت باسم الملكة اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه إياها، و ظلت واقفة إلى جانب الحزب الامبراطوري، و قد توفيت داخل القلعة، وبعد ما توفيت حملها الذين كانوا في سيرينا إلى الخارج، وأعلنوا أنها الملكة و أنها الآن ميتة، و استقبلها الملك و صاحب بيروت، و أقاما مناحة كبيرة من أجل موتها، وأمرا بحملها مبجلة إلى نيقوسيا على أيدي فرسان ساروا على الأقدام، ثم أمرا بتنظيم موكب مع جميع شعب نيقوسيا لمرافقتها داخل المدينة حتى الكنيسة الكاتدرائية لنيقوسيا حيث دفنت هناك، و بعد هذا عاد الملك و صاحب بيروت لمتابعة حصار سيرينا، و جلبا إلى هناك قوات عسكرية كثيرة .

١٣٨(١٩٩): وأمر الملك هنري بعقد اجتماع عام لبلاطه ، وقد م شكوى إلى محكمة بلاطه ضد السيرعموري برلياس، و السيرعموري صاحب بيسان، و السيرهيوج صاحب جبلة، وضد جميع أتباعه الذين وقفوا ضده في المعركة، منذ أن وصل إلى السن القانونية،(٢٣٦) وتم حرمان هولاء بموافقة عامة من قبل أعضاء المحكمة، وأعلن عن أن الحرمان يشملهم شخصيا و يشمل ممتلكاتهم، وقام الملك بإعطاء إقطاعياتهم إلى الذين خدموه و ساعدوه، و انزعج القبارصة كثيراً لعدم امتلاكهم لغلايين حتى يتمكنوا من حصار القلعة من جهة البحر، و ترددت غلايين اللومبارد فيما بين سيرينا وبين صور، وقضى الرب بوصول ثلاثة عشر من الغلايين عائدة إلى الجنويين، و قد وصلت عبر البحر إلى ليماسول خلال عبورين، فقد وصل في العبور الأول أربعة من

الغلايين، و في العبور الثاني تسعة، و توجه صاحب بيروت مسرعاً إلى ليماسول، و احتفظ بهذه الغلايين مقابل الأجر المالي من قبل الملك، و جلبهم إلى سيرينا .

١٣٩ : و من ثم حوصرت القلعة من جهة البحر و من جهة البر، و ذلك بوساطة هذه الغلايين و الذين أمكن تأمينهم من قبرص، و جرى بناء الكثير من الآلات في الخارج، و ذلك من قاذفات للحجارة، و مجانيق، وآلات كبيرة، كما جرى بناء برجين عملاقين من الخشب،مع سواتر متحركة كثيرة، لتدفع ضد الأسوار و لتقترب منها، و كانت هناك حملات كثيرة في النهار وفي الليل، وكانت هناك منازلات قتالية في كل من الداخل والخارج، و قد جرح العديد من على الطرفين، لأنه قد توفر هناك عدد كبير من القسي العقارة، و تمّ دفع البرجين الخشبيين حتى وصلا إلى الخندق، و امتلك الذين كانوا في الداخل عساكر أفضل من الرجالة مما كان في الخارج، و هكذا تمكن هؤلاء الذين كانوا في الداخل بالقوة من إلقاء النار في البرجين، و قاوموا مقاومة فعالة جداً ، خشية منهم من الايداع بالسجن، أو مواجهة الموت، وامتطى الفرسان في الخارج خيولهم، واندفعوا بها حتى الخندق، وهناك ترجلوا ودخلوا إلى البرجين الخشبيين اللذان كانا يحترقان، و قدأطفأوا النار بالقوة وأنقذاهما، وأعادوهما إلى الخلف، وقد جرح هناك عدد كبير من الفرسان.

١٤٠ : و تحادث الذين كانوا في داخل القلعة خلال الليل مع قائد السيرجندية الذين كانوا في الخارج وكان اسمه مارتن روسو Rous-seau ، و قد أعطوه كثيرا، ووعدوه بإعداد معاهدة معهم ليقوم بخيانة الذين كانوا في الخارج، و قد اتفق معهم وأعدّ أنه سيرى الوقت الذي يكون فيه الجيش منهكاً جداً، فعند ذلك سوف يحمل الذين في الداخل أسلحتهم و يخرجون منقضين بقوة، ووقتها سيتولى مارتن هذا وسيرجنديته قتل كل من يستطيعون ممن هو بالخارج، و لسوف يقتلون

بكل سهولة السير هيوج والسير آنسيودي بري، اللذان كانا معسكران على مقربة من القلعة أكثر من الآخرين، و غالبا ماتوليا تفقد حراسة السيرجنديته قرب الأسوار و ملاصق لها، و تمكن مارتن روسو هذا من إلحاق أضرار بالغة، لأنه كان من أكثر الناس معرفة بصاحب بيروت وبأولاده ، و كان معهم خلال معظم مدة الحرب، و قدأحسنوا إليه كثيراً ووثقوا به ، و كانت إمرة الحرس حول القلعة موكولة إليه كلياً، و لذلك أرسل إلى القلعة ماأراده و تلقى منها مارغب به.

١٤١ : و بفضل من ربنا جرى كشف أمر هذا الخائن بوساطة رجل جاء من داخل القلعة، و حدث في تلك الساعة أن ذهب مارتن روسو إلى نيقوسيا للحصول على قسي عقارة وتجهيزات أخرى رغب في ارسالها إلى داخل القلعة، و بعث صاحب بيروت فيليب دي نوفار فألقى القبض عليه يوم عيد الفصح من أيار،(٢٣٧)وألقى أيضا القبض على معلم صانع للقسي العقارة ،و كان من أتباع الملك، وقد شارك بهذه الخيانة، و كان قد بعث إلى الذين في داخل القلعة من خلال الجيش كثيراً من القسي العقارة و أسلحة أخرى، و حملها فيليب دي نوفار إلى الجيش الذي كان معسكراً أمام سيرينا، وقد اعترفا بالخيانة أمام محكمة كاملة، وقد حكم عليهم( أي على الخونة جميعاً) بالإغراق أو بالشنق، أما مارتن روسو فقد قذف على أسوار القلعة بوساطة آلة رمي كبيرة، ثم بادر الذين كانوا خارج القلعة إلى نصب آلاتهم أمام الأسوار بدون إبطاء.

١٤٢ ( ٢٠٠ ) : وحدث في أحد الأيام لسوء حظهم العظيم، أن أصيب السير آنسيودي بري بجراحة، وكان آنذاك يدفع بنفسه إحدى الآلات ويحث الآخرين على دفعها، وجاءت إصابته بوساطة رمية سهم عقار، كان طوله قدمان، وقد سحب السهم ورماه بعيداً، واعتقد بأنه تخلص من الرأس المعدني، لكن لسوء حظه بقي هذا الرأس في طرفه، وقد فقد الكثير من الدماء، لكنه لم يرغب بأن يعلن ولاكلمة عن إصابته

حتى يتم دفع الآلـة كما ينبغي، ثم لاحظ الذين كـانوا إلى جانبه إصـابته وأدركوا مـداها فساعـدوه حتى عاد إلى مقـره، وقد نزف كثيراً حتـى صار لونه مثل لـون الثلج، وتقاطر جميع أفراد الجيش نحو مقـره وكذلك فعل جميع رفاقـه، وهم يشعرون بالحزن الكبير، وكـان فوق هؤلاء الرجـال جميعاً صـاحب بيروت، الـذي دعاه بـاسم« أسـده الأحمر»، وقد امتلـك السبب لذلك، فقـد كان (السير آنسيو) قـد اهتم أكثر من سـواه ونشط في سبيل مصالح الجيش، وكان أهلاً بالمكانـة العالية أكثر من غيره، وقد حملوه إلى بيته في نيقوسيـا، حيث تمدد في فراشه لمدة نصف سنـة أو أكثر، ولم يمكن العثور على الـرأس المعدني حتى اليوم الثالـث قبل موته، وهكذا نفـذ فيه قضـاء الرب، وسبـب موتـه حـزناً عظيماً للملـك وللرجـال الجيـدين في قبرص أيضاً، وفي اليـوم الذي مات فيـه كان صاحب بيروت في سـورية، ذلك أن قلعـة سيرينا كـانت قـد استسلمت، ولسوف تسمـع الآن كيف حدث ذلك.

١٤٣ ( ٢٠١ ) : وكما سمعت أمر الملـك ورجاله ببنـاء عدد كبير من آلات الحرب، وبعث بهذه الآلات أمـامه، متخـذاً الاستعدادات للهجـوم القبرصي، وقـاتل السير بـالين دي إيبلين ورجـاله أمـام القلعـة، وهـاجم صاحـب بيروت وأولاده الأسوار من جميع الجوانب، وبـاتت آمالهم عـالية بـالاستيلاء على القلعـة، لأن الآلات تمكنت مـن إضعاف الأسـوار كثيراً، وكان الذين في الـداخل رجالاً منظمين ومقاتلين جيدين، وكـانوا يخشون من السجـن أو الموت، ولهذا دافعوا عن أنفسهـم دفاعـاً عظيماً وبفعاليـة كبيرة، وقـاتل الـذين في الخارج بثبـات كبير، وكـان هناك عـدد كبير قـد أصيبوا بجراحـة ، وتلقى أولاد صاحب بيروت هناك كثيراً مـن الإصابات البـالغـة، وفي الـوقت نفسـه كـان بين الـذيـن في الـداخل قتلى كثيريـن وجـرحـى، وكـان المهـاجمون يتــوقفـون عـن القتـال مع حلــول الظـلام وينسحبون.

١٤٤ ( ٢٠٢ ) : ولام صاحب بيروت نفسه كثيراً وانتقدها، وقال بصوت مرتفع مسموع بشكل واضح:«ياللأسف، لقد أصابني سوء الحظ هذا، في هذا الوقت، وياحزني ممن الشيء نفسه الذي حدث مرة لرجل من أهل بيتي، فعندما كان الملك عموري، داخلاً إلى مصر، أمر وقتها السير هيوج دي إيبلين( ٢٣٨ )، بمهاجمة مدينة بلبيس واقتحامها، وهي المدينة التي كان محاصراً لها، وأجابه( السير هيوج) بأنه سيذهب ويقوم بالهجوم، وعندما وصل إلى الخندق نخس حصانه وحمل، فاندقت رقبة الحصان، وانكسرت ساق عمي، وبادر وقتها جميع رجال الجيش إلى إنقاذه، ونجم عن هذا أضراراً بالغة، لأن عدداً كبيراً منهم قتلوا هناك وجرحوا ، وحمل بعد ذلك على الخندق السير فيليب (٢٣٩)، صاحب نابلس الذي كان فارساً جيداً، وكان بالوقت نفسه خاله (عمه)، فلقد حمل بعد حفيده، وهكذا حدث الشيء نفسه، ونجا هذا من الموت بصعوبة بالغة».

١٤٥ :« ثم كان بفضل الرب وإرادته أن تم الاستيلاء على المدينة، ومن ذلك الحين اتخذ الملك عموري ورجاله قراراً إلزامياً بأن لايقوم أي فارس أثناء أدائه لخدمة تتعلق بالاستيلاء على مدينة أو قلعة أو أي مكان،بالقفز إذا لم يستطع حصانه حمله، باستثناء الحالات التي يكون فيها محاصراً أو يدافع عن نفسه( ٢٤٠ )، وأنا التعيس سيء الحظ الذي يعرف القرار الذي اتخذ لكل واحد من بيتي، قد عرضت اليوم نفسي وأولادي وأصدقائي للموت في الحملة على هذه القلعة التعيسة، التي سوف تستسلم في أحد الأيام من قبل نفسها بسبب المجاعة»، وواساه الذين كانوا هناك وقالوا: «لاتشغل يامولاي بالك ولاتزعج نفسك بهذه الأمور، فالذين قتلوا في الداخل أكثر مما خسرته»، واستمر الحصار وقتاً طويلاً، وكانت النفقات التي بذلت هناك كبيرة جداً، وكانت المبالغ التي دفعت إلى السيرجندية وإلى الغلايين عظيمة، وكانت الضرائب التي

فرضها الملك عالية جداً، ذلك أنهم ما كانوا ليشعروا بالأمان ما لم يستولوا على سيرينا .

١٤٦ ( ٢٠٥ ): وسمع الامبراطور فردريك الأخبار من سورية، ولانعرف فيما إذا كان لم يملك الفرصة للقدوم إلى سورية، أو أنه لم يرغب بذلك، المهم أنه لم يقدم، غير أنه أرسل أسقف صيدا إلى سورية، مع رسائل على درجة عالية من اللطف والإطراء، قائلاً أنه ليس لديه أية مشاعر سيئة نحوهم لما فعلوه، ووعد بالعفو عنهم وأن يمنحهم نعمه، وطلب منهم أن يكونوا مخلصين له ولابنه، زد على هذا أنهم إذا لم يرغبوا بوكيله الموجود في صور في أن يكون وكيلهم، إنه سيوافق على الفور أن يكون واحداً من رجاله من أهل البلاد وكيلاً لهم في عكا، وأن يكون رتشارد فيلنغر في صور، وجاء في هذه الرسائل واضحاً سمة المرشح ليكون الوكيل، فقد كان فارساً كان موجوداً في صور، واسمه فيليب موغاستيل Maugastel( ٢٤١ )، وكان قليل التقدير، وقيل كان يصنع وجهه مثل امرأة، وأنه كان وثيق الصلة بوكيل صور، وقد خيل للامبراطور أنه بهذه الوسائل يمكن أن يربح إلى جانبه الناس في سورية، وأن يبعدهم عن تقديم العون إلى صاحب بيروت وإلى القبارصة، وهو طبعاً ما أن سيملك الفرصة سوف يقترف أسوأ ما يمكنه،( ٢٤٢ ) .

١٤٧ : وبعد ما قام أسقف صيدا، الذي جاء إلى عكا بالتباحث حول عدد من الأمور وبعد إجراء ترتيبات كثيرة، اتفق صاحب صيدا والقسطلان( ٢٤٣ )، حول هذه الأمور، وجعلا الناس يأتون إلى كنيسة الصليب المقدس، حيث وجد الإنجيل، وبينما كانوا ينتظرون القيام بأداء اليمين، حدث أن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت مولاي صاحب بيروت، كان قد جاء من قبرص لقضاء أعمال خاصة به، فسمع بهذا الشيء، فجاء مسرعاً إلى عكا، ودخل في الساعة التي كان اليمين سيتم أخذه بها إلى الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس، وأمر بضرب

ناقوس« الكومونة»، وعندما سمع رهبان القديس أندرو صوت الناقوس ، بادروا إلى حمل السلاح( ٢٤٤ )، وصرخوا جميعاً:«إقتل، إقتل» .

١٤٨ : ورآهم أسقف صيدا فهرب خوفاً منهم إلى بيت أسقف عكا، وتخفى في البيعة، ولولا قدوم صاحب قيسارية، لكان أسقف صيدا قد قتل في ذلك اليوم، وكذلك صاحب صيدا، والقسطلان أيضاً، غير أن صاحب قيسارية استرد الهدوء، وقادهما معه إلى خارج المكان، وبادر على الفور إلى إعلام خاله صاحب بيروت بجميع هذه الأشياء، وكان آنذاك في قبرص مشغولاً بحصار سيرينا( ٢٤٥ )، وعلى الفور تخلى صاحب بيروت عن الحصار، وعين مكانه ابنه الأكبر السير بالين، ورغب الملك هنري أن يصطحب معه فيليب دي نوفار، لكن السير بالين لم يسمح بذلك .

١٤٩ : وذهب صاحب بيروت إلى عكا، وأجرى ما لزم من ترتيبات، وأمر بتجديد أيمان جميع البوليان، وأنه من جديد هو المقدم، وبعث أسقف صيدا إلى صاحب بيروت يلتمس منه باسم الرب ولأجله ولأجل شرفه وللمنفعة أن يسمح له بالقدوم إليه ليتحادث معه، ورد عليه صاحب بيروت أنه باسم الرب عليه أن يقدم، وأرسل إليه(الأسقف) وجلب إليه إلى هناك، وما أن مثل( الأسقف) بحضرة الإيبليني حتى تولى قراءة رسالة من الامبراطور، بعث فيها(الامبراطور) بتحياته وتطميناته .

١٥٠ ( ٢٠٧ ) وقال الأسقف:« لقد ورد في هذه الرسائل وجوب أن تصدقني، فقد بعث إليك الامبراطور رسالة يقول فيها إنه نادم كثيراً لما جرى بينك وبينه، وأنه سوف يتصرف في المستقبل نحوك ونحو الذين يتعلقون بك بأن تصبحوا أغنياء، وذوي أساسات ثرية، لكنه يتمنى عليك الاستجابة لنقطة واحدة فيها تشريف له، بها لن يكون بمقدور الناس القول بأنك قهرته، والتشريف الذي يطلبه منك أن تقدم إلى مكان يبدو أنه خاضع له ومن أملاكه، وأن تقول ببساطة مطلقة، وفق

الطريقة التالية أووفق طريقة أخرى: « إنني أضع نفسي تحت رحمة الامبراطور بحكم أنه مولاي»، وعلى هذا رد مولاي صاحب بيروت قائلاً:« سيدي الأسقف، عندما أنتهي من كلامي سوف أجيب على طلبك، لكن قبل ذلك سوف أضرب لك مثلاً، وهو حكاية كتبت في كتاب حكايات رينارد، وهي بتقديري سوف تنطبق تماماً على هذه المناقشة التي افتتحتها» .

١٥١ :«لقد حدث في غابة كانت كثيفة الأشجار، ومليئة بجميع أنواع الحيوانات، أنه كان هناك أسداً عظيماً، وقد كان شاحباً جداً، ومريضاً، ومضطرباً، وكان في أحد الأيام مستلقياً أمام مدخل كهفه، فرأى يمر أمامه مجموعة كبيرة من الوعول الفتية العائدة لذلك الموسم، وقال الأسد لخاصه أهل بيته: إذا أنا لم آكل ذلك الوعل الشاب الذي سار أمام الآخرين سوف أموت، فهذا ما أخبرني به الأطباء، لذلك بعث إلى الوعل وتوسل إليه باسم الرب أن يقدم ويتحدث معه، لأنه مريض جداً،وهو يموت ، واستجاب الوعل وذهب إليه لأنه مولاه، وما أن دخل إلى الكهف حتى بادر الأسد مسرعاً للإمساك به، وقفز عليه وضربه على رأسه بكفه فمزق جلده حتى مادون جبهته، وكان الوعل قوياً وسليماً، وكان الأسد ضعيفاً ومريضاً، لذلك وقع إلى الخلف نتيجة ضربته التي سددها، وهرب الوعل ورأسه ينزف وقال بأنه لن يدخل إلى بلاطه ثانية، وفي الوقت نفسه تعافى الوعل من جراحاته» .

١٥٢ :« وحدث بعد هذا بأمد طويل، أن الأسد بعث إلى الوعل وقال أنه بعون الرب قد فكر باستقباله بكل ترحاب وسرور عندمدخل بيته وهو يريد أن يعانقه، وأنه لسوء حظه حدث أن لمست مخالبه رأسه، وأن ذلك حدث على الرغم منه، وبسبب ضعفه ووقوعه أصابته مخالبه، وترجاه الآن باسم الرب أن يأتي إليه، ولقد بذل كثيراً من الالتماسات وترجاه طويلاً حتى أنه ذهب إليه ثانية، وخرج الأسد لاستقباله، وقفز

للإمساك به، وأصابته مخالبه وجرحته حتى ذيله، ولقد أصابه في ظهره كله ، وكان هناك في الظهر جرحين عميقين، وقفز الوعل بكل عنف لإصابته بالجراحة، وكان الأسد ما يزال ضعيفاً، وسقط نتيجة لضربته، وهرب الوعل، وإثر هذا ظل مريضاً من جراحاته ، لمدة عام تقريباً» .

١٥٣ : «وفي نهاية العام أرسل الأسد إليه ثانية واحداً من بارونـاته، وأقسموا له كثيراً وتوسلوا أكثر إلى حد أن الوعل خدع وقدم مجدداً إلى البلاط، وكان الأسد قد تحسن وأنشأ حول نفسه حاشية خاصة به، وأخذ أفراد الحاشية الوعل وقتلوه، وأصدر الأسد أوامره بوجوب سلخه، ووضع التوابل له وتنظيفه لأنه رغب في أكله، وأكل الحيوانات من اللحم، أما أمثال زنغريم وريناردفقد شغلوا أنفسهم بإعداده، وأدخل رينارد فمه وبوزه في داخله وأخذ القلب وأكله، وقد خاف بقية الحيوانات من هذه الفعلة كثيراً، ولاحظ الأسد ذلك، وحاول ــ كخائن ــ بذل غاية جهده لتسويغ عمله بوساطة كلماته، فقال :لاتظنوا أيها السادة أنني قد قتلت هذاالوعل غدراً أو خيانة، بل إنني فعلت ذلك لشفاء نفسي، ذلك أن جميع الأطباء قالوا بأنني لا يمكن أن أعيش إذا لم آكل قلب هذا الوعل».

١٥٤ :« ولم يتمكنوا من العثور على القلب لأن رينارد كان قد أكله، وأقسم الأسد بأن رينارد قد فعل ذلك، لأن لحيته كانت ملوثة بالدم، وأشار الجميع نحوه بأصابعهم، وحكم الجميع بوجوب موت رينارد لفعلته هذه، وأعلن رينارد على مسمع الجميع بأنه كان مطيعاً لأوامر الملك، ووضع نفسه تحت حكم المحكمة، وهناك قال رينارد : أيها السادة قدم الوعل مرة إلى البلاط، وذهب عائداً مبتعداً برأس ينزف، وجاء مرة ثانية وغادر بجرحين بليغين في ظهره، وجاء بالمرة الثالثة ليموت وهو ضعيف ذليل مثل الذين بلا قلب، لأنه لو كان لديه قلب لما جاء للمرة الثالثة، ويقول المثل : الشيء المفقود هو الذي لايمكن إيجاده، فالوعل لم يكن لديه قلب، وأنا لم آكله، وذقني ملوثة بالدم

بسبب سلخي له وفتحي لجسده، وأنا ألتمس من كل واحد هنا في هذا المكان، باسم الرب، ومن أجل نفسه، أن يحكم علي، وهنا قال الجميع بصوت واحد بأن الوعل لم يمتلك قلباً، وهكذا جرى إطلاق سراح رينارد» .

١٥٥ : وتابع صاحب بيروت يقول :« وأنا أقول لكم يا سيدي الأسقف إن الذي حدثتكم به مثل ينطبق عليّ تماماً وعلى الامبراطور، فهو الأسد وأنا الوعل، وقد تولى خداعي مرتين، وكانت المرة الأولى في ليماسول، وقد عدت منها برأس ينزف، وكانت المرة الثانية عندما تركت قلعة ديودامور، وجئت إليه، فقد قام على الرغم من جميع الاتفاقيات وضدها فاحتفظ بالقلاع وبقبرص جميعها، وباع الملك وقبرص إلى أعدائي، ومثل هذا الجرحين البليغين في ظهري، وإذا ما قمت الآن بوضع نفسي تحت رحمته، أعتقد أنني سوف أقتل مثلما حصل للوعل، ولسوف يحكم عليّ بشكل مؤكد أنني كنت بلا قلب، ولهذا أقول لك أيها السيد الأسقف، وبودي أن يعلم جيداً بأنه سوف لن يضعني تحت سلطانه، فضلاً عن هذا، إذا ما حدث لسوء الحظ، ومثلت أمامه، وهو يمتلك القوى كلها، وأنا ليس لدي لاأولاد، ولا أصدقاء، ولاقوة تتجاوز إصبع يدي الصغير، فبهذا الأصبع سوف أدافع عن نفسي حتى الموت» وهكذا أنهى كلماته .

١٥٦ ( ٢٠٩ ): وكان صاحب بيروت قد أسس نفسه وأوضاعه بشكل جيد في سورية، وقد ترك في سورية محله ابن أخته صاحب قيسارية، وعاد على الفور إلى قبرص، ودام حصار قلعة سيرينا لمدة أكثر من عام، وعانى الذين كانوا في الداخل من أشياء كثيرة، وعرفوا أنه من غير الممكن وصول عون إليهم من عند الامبراطور، وعرفوا بأن وكيل صور كان يقوم بإبرام معاهدة، ولهذا تحدثوا عن المصالحة، وتولى أرنيس صاحب جبلة وفيليب دي نوفار إبرام الصلح، ونتيجة لذلك سلموا

القلعة والأسوار وجميع الأسلحة والمؤن والعتاد الذي جلبوه ووجدوه في الداخل( ٢٤٦ ) .

١٥٧ : وحررهم فيليب دي نوفار، وأمن لنقلهم ما احتاجوه من غلايين ومراكب ، وجعلهم يذهبون إلى صور آمنين سالمين هم ومقتنياتهم، وقضى الاتفاق أنهم ما أن يصبحوا في صور، حتى يتوجب على صاحب بيروت المضي إلى عكا،وأن يأخذ جميع الأسرى الذين أسروا في المعركة ومايزالون أحياء، وعليهم تسليمه جميع رجاله الذين أسروا في قلعة إيمبرت، والذين كانوا في صور، وتم تنفيذ ذلك حسبما قيل، فقد أخذ الأسرى معه إلى عكا( ٢٤٧ )، وكان قد جرى الإعداد من قبل بوجوب أخذ الأسرى من كلا الطرفين إلى وسط الطريق بين صور وعكا، وهنا جرى تبادل أسراهم فيما بينهم، وعاشت قبرص إثر هذا بسلام، لكن سورية بقيت في أوضاع سيئة، لأن السير رتشارد فيلنغر وأخوانه وعدد كبير من اللومبارد قد بقيوا في صور ( ٢٤٨ ) .

١٥٨ ( ٢١٢ ) : وبعد أربع سنوات من عقد المصالحة، وكان هذا في سنة ١٢٣٦ ، قام مولاي جون دي إيبلين بالاعتراف، فقد كان السيد الجيد لبيروت، الذي أدرك جيداً فضل ربنا عليه ونعمته حيث منحه مجداً وتشريفاً عظيماً، وجاء اعترافه بسبب الوحش الذي انقض عليه، وقام بهذا الاعتراف بشكل نظامي حيث عجب الناس كثيراً من ذاكرته العظيمة، وقد تاب من جميع ذنوبه ونال المسامحة، وقد تاب من كثير من الأشياء التي لايعدها الناس ذنوباً، وقد سدد جميع ديونه لأنه امتلك في ذلك اليوم مداخيل كبيرة، وذلك بالاضافة إلى إقطاعاته، وأعطى الجميع في سبيل الرب، وفي سبيل خلاص روحه، وأعطى ذلك بيديه مع ذكرى طيبة، ولقد منح الكثير من الإقطاعيات إلى أولاده، وأمر بأن يكونوا تابعين لأخيهم الأكبر، ومتملكين للاقطاعيات منه .

١٥٩ : وبعد هذا جعل من نفسه راهباً من رهبان الداوية، وذلك

حسبما كان قد نذر، وقد عارض أولاده ذلك معارضة كبيرة، وشعر جميع شعب البلاد بأسف عظيم، لهذا السبب، لكن ذلك لم يجد شيئاً، لأنه دخل في رهبانية الداوية على الرغم من معارضتهم، وقد فعل ذلك بكل هدوء، وحمل نفسه وتوجه إلى عكا، ولم يبق طويلاً في هذه الرهبنة، وبموته ختم حياته بشكل يجعل الانسان يندهش ويصعب عليه أن يصدق حقيقة ما شهده وتلمسه، وعندما كان يحتضر ويسلم الروح طلب إحضار صليب ووضعه أمامه وحمل فيليب دي نوفار الصليب، وأمسكه بيديه واضعاً إياه أمامه، وقد قبل قدمي ربنا يسوع المسيح، وقال بقدر ما استطاع:« في عهدتك، وأمرك، أضع روحي»، وهكذا أسلم الروح إلى الرب، ولم يتغير جسده لدى موته، وإذا كان الإنسان يؤمن بأن الأرواح الطيبة تذهب أمام الرب، يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، بأن روحه قد مضت من هناك إلى الفردوس، وبقي الآن ابنه السير بالين الذي تحكم بذاته وبتصرفاته وكان نشيطاً، صاحب بيروت في مكانه، ولقد توفر لديه أخوان طيبون، وأولاد عم وأولاد خال، وأصدقاء جيدون ساعدوه مساعدة مفيدة .

١٦٠( ٢٢١ ): وكان اللومبارد وقتذاك في صور، وقد عاشوا هناك لبعض الوقت بهدوء وسلام، ونجح رتشارد فيلنغرمارشال الامبراطور وقتها،وضمن، واجتذب إلى حزبه رهبان مشفى القديس يوحنا، كماكسب اثنين من أهم برجاسية عكا، وكان لهما سلطات واسعة ونفوذ قوي على شعب المدينة، وكان اسم أولهما جون فالين Vaalin، واسم الآخر وليم دي كونشي Conches، وحدث في ذلك الوقت في عكا أنه لم يكن هناك فيها أحد من حزب الإيبلينيين، فيما عدا واحد فقط كان اسمه السير فيليب دي مونتفورت( ٢٤٩ )، وكان قد قدم عبر البحر عندما جاء ملك نافار إلى عكا، وقد تزوج من سيدة نبيلة من البلاد، عرفت باسم سيدة تورون ( ٢٥٠ ) (تبنين)، ولزواجه منها دعي باسم صاحب

تورون، وكـان عن طـريق أمه ابـن خال لـواحد ألماني اسمـه السير بالين الأصغر، صاحب بيروت، وابن خال أيضاً لأخوانه( ٢٥١ ) .

١٦١ : وكان السير بـالين دي إيبلين صاحب بيروت قد عـاد في ذلك الحين من جيش ملك نافـار، بعدما أمضى فيه وقتاً طويـلاً، وبعدما صنع لنفسه اسماً عظيماً، وقـد أقام إقامـة مؤقتة في بيروت، وكـان أخواه : السير غي والسير بلدوين ـ اللـذان حققا فيما بعد مكانة هامـة جداً ـ آنذاك في قبرص، وكان أخوهما السير هيوج، وكذلك صـاحب قيسارية الأصغر قد انتقـلا من هـذا العالم، وسبـب انتقالهما هـذا حزنـاً وخسـارة كبيرة لجميع أصـدقائهما وإلى المملكتين، وكـان أخـوهما السير جـون صاحـب فوغيـا آنـذاك في أرسـوف( ٢٥٢ )، ويـودس دي مونتبليـارد القسطـلان، وهـو الذي تزوج مـن ابنة خالهما( ٢٥٣ )، وهو الذي تسلـم منصب الوكيل في عكا( ٢٥٤ )، لقـد كان آنـذاك في قيساريـة هو والـداوية في الجيـش مع قسم من فرسـان المملكة، ولهذا كله كان بإمكان رتشـارد فيلنغر هذا، أن يقوم بمغامرته وهو كبير الاطمئنان .

١٦٢ ( ٢٢٢ ): وهكـذا كان أن حـدث مـايلي:بعـدما تجسـس وكيل صـور السير رتشـارد فيلنغـر، واكتشـف الكثير، ورتـب الأمـور مـع البرجاسيين،المشار إليهم أعلاه، انطلـق وجاء بشكل سري إلى عكا، وكان ذلك خلال الليـل، وقد دخل إليها من بـاب خلفي مموه كان مـوجوداً في السور، وقاده هذا الباب إلى حـديقة المشفى، ومن هناك مضى مباشرة إلى مقر فرسـان مشفى القديس يوحنـا، وتمّ استقباله هنـاك، ومكث لمدة يوم وليلة، ومـا يزال البـاب الخلفي يـدعى«باب مـدخل الشيطـان»، وذهب البرجاسيـان المتقدم ذكرهما إلى مقر فـرسان الاسبتارية، وتشـاورا معه، ثم مضيـا بعد ذلك يتجـولان في شـوارع المدينة يبحثـان عمن سـوف يقسم لهما، وقد جعلا كل الـذين أبدوا الرغبة في تصديقهما يقسمـون أن يكونوا قيد أمر الوكيل الذي جاء من صور.

١٦٣ : وكشفت أخبار أفعالهما من قبل واحد من الذين أقسموا لهما، وبذلك عرف فيليب دي مونتفورت بأخبارهما، وكان هناك هياج عظيم في المدينة، وقد انطلق حاملاً سلاحه ومعه أكبر عدد من الرجال استطاع تجنيدهم، وقام الجنويون والبنادقة الذين لم يحبوا الامبراطور أو أتباعه، فتسلحوا على الفور، وخلال ساعة من الزمان حصنوا شارعهم، ونشط السير فيليب دي مونتفورت فاستطاع إلقاء القبض على البرجاسيين، ووضعهما بالأغلال، وبعث على الفور بخبر هذه الأوضاع إلى صاحب بيروت، وجاء صاحب بيروت مسرعاً، وجلب معه جميع قواته وعدداً كبيراً من سيرجندية الجبال، ولقد قدم مسرعاً جداً ومرّ أمام أبواب صور، وعلم رتشارد فيلنغر الوكيل ـ الذي كان متخفياً في عكا في داخل مقر الاسبتارية ـ بقدوم صاحب بيروت، وباعتقال صديقيه، فهرب على الفور أثناء الليل من خلال الباب الخلفي المموه، وعاد إلى صور، وقام بجهد قليل للتصدي لصاحب بيروت، وقد أخفق في ذلك .

١٦٤ : وعندما دخل صاحب بيروت عكا، غدت المدينة على الفور خاضعة لسلطانه، وقد فهم بأنّ الاسبتارية كانوا طرفاً في هذه العملية، فحاصر المشفى من جميع الجهات وضغط عليها عن قرب عظيم، وألحق بها أضراراً فادحة، وقد تمكن من أن يفعل ذلك بسهولة لأن المقدم الأخ بيتردي فيلابرايد( ٢٥٥ ) Villebride،وهيئة قيادة الاسبتارية كانوا آنذاك في المرقب بسبب الحرب التي كانت ناشبة آنذاك مع سلطان حلب( ٢٥٦ ) من أجل السيطرة على تخوم المرقب ومدينة جبلة، وعلم آنذاك صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر الوكيل، قد هرب من مقر الاسبتارية وذهب إلى صور، وعاد القسطلان ورجال بلاده الذين كانوا في قيسارية من الجيش وصاروا تحت إمرة صاحب بيروت، وهكذا مكثوا مدة طويلة في عكا .

١٦٥ ( ٢٢٣ ): وحاصر صاحب بيروت بيت فرسان القديس يوحنا

في عكا لقرابة ستة أشهر( ٢٥٧ )، وهكذا ما من إنسان سمح له بالدخول إلى البيت والخروج منه من دون أن يكون قادراً على أن يفعل أي شيء أكثر، لأنه وجد أيضاً في البيت عدد كبير من الرجال الجيدين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم فيه، وكان في البيت عدد ضئيل من الاسبتارية لأن المقدم وهيئة القيادة كانوا بعيدين مسافرين، حسبما ذكرناه أعلاه، وبناء عليه قرر المقدم وهيئة قيادة الاسبتارية واتفقوا على إيقاف حملتهم ومن ثم العودة إلى عكا، وفعلوا ذلك وعسكروا خارج المدينة في الكروم الجديدة.

١٦٦ : وتدخل الأصدقاء المشتركون وتوصلوا إلى عقد صلح فيما بين الاسبتارية وصاحب بيروت، ومن ثم جرى التخلي عن حصار الاسبتارية، حيث أعلن صاحب بيروت عن نفسه مخطئاً جداً بحق الاسبتارية بسبب قيامه بهذا العمل وترجى من أجل المسامحة، وأعلن أمام الناس، بأن بعض الناس الذين لايحبون الاسبتارية جعلوه يفعل ما فعله بإعطائه صورة وبجعله يعتقد بأن الأشياء التي رغب رتشارد فيلنغر القيام بها في مدينة عكا مع جميع الاضطرابات التي تمت، قد جرى ترتيبها من خلال بيت الاسبتارية، وبفضل مساعدته وتأييده، حيث كان رتشارد فيلنغر باقياً في داخل بيت الاسبتارية، ولهذا السبب حاصر هذا البيت، وبناء عليه إنه يمتلك الامكانات العظمى للأسف .

١٦٧ : ثم قال مقدم الاسبتارية لصاحب بيروت :« عليك يا صاحب بيروت أن لاتصدق أن يقوم بيت الاسبتارية بمثل هذا العمل الخطير الكبير أو أن يكون شريكاً، عندما تكون هيئة قيادتنا بعيدة عن عكا، وعلى مسافة عظيمة، وحسبما كنا مشغولين خارج المرقب، ولقد كنا قد تركنا عدداً قليلاً من الرهبان في البيت في عكا، وذلك كما يعرف كل واحد، لابل حتى في هذه الحالة من المؤكد أن أخواننا الذين كانوا آنئذ في البيت لايمكن أن يشاركوا بأية صورة بمثل هذه الأشياء، ولهذا

السبب ينبغي عدم اتهام بيت الاسبتارية بأية تهمة قذرة، أو أن يوصموا بمثل هذا العار الكبير حتى يحاصروا لمثل هذا السبب، وعلى كل حال، بما أن المسائل قد سويت بما حقق الرضا لكل من الطرفين، فإن هذه الأشياء التي مضت يتوجب نسيانها كلياً».

## *كيف غادر رتشارد فيلنغر صور ليذهب عبر البحر*

١٦٨ ( ٢٢٤ ) : وحدث في هذه الآونة أو قبل ذلك بوقت قليل أن أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى السير رتشارد فيلنغر، الذي كان وكيله في صور، بوجوب حضوره إلى عنده، ذلك أنه يرغب في أن يرسل إلى سورية واحداً يحل محله، وغادر السير رتشارد المتقدم الذكر وسافر من صور، وكان معه أخوه السير هنري، وابن أخته جون أوف سورنتو Sorrento، وزوجاتهم وأولادهم وحواشيهم وآل بيوتهم ( ٢٥٨ )، وقد صعدوا جميعاً ظهر سفينة كبيرة، وسافروا عليها، وعندماغادر رتشارد فيلنغر ترك أخاه لوثير في مكانه، ومعه ما يكفي من الرجال والسلاح، فهو كان سيتولى حكم مدينة صور، لأنه كان مارشال مملكة القدس من جهة الامبراطور( ٢٥٩ )، وكان سكان صور يكرهون اللومبارد كراهية عظيمة، ولهذا جاء أربعة منهم( ٢٦٠ ) إلى صاحب بيروت وعرضوا عليه تسليم مدينة صور إليه، وأعدوا معه الترتيبات، وقد عقد مجلساً استشارياً هناك حول الموضوع مع السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، ومع فيليب دي نوفار الذي كان وثيق الصلة به وقريباً جداً منه، وقرر الاجتماع مايلي : أن يتوصل إلى اتفاقية مع هؤلاء الرجال، ثم تلقّى اليمين من هؤلاء البرجاسية الأربعة من أهل صور .

١٦٩ ( ٢٢٥ ): وفكر فيليب دي نوفار ملياً في هذه المسألة خلال الليل، ثم إنه ذهب إلى مولاه، صاحب بيروت وقال له:«لقد فكرت يامولاي حول شيء يحميك من الملامة، فأنت تعرف أنك أنت مع الآخرين من أهل مملكة القدس قد أديت يمين الولاء للامبراطور على

أساس أنه الوكيل عن ابنه الملك كونراد، ولقد حافظت بأمانة وصدق على يمينك دوماً بينما حافظ هو بشكل سيء على يمينه كما هو واضح( ٢٦١ )، وأعلمك أن الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية( ٢٦٢ )، ولهذا السبب قد تحررت أنت من الامبراطور، ولسوف يكون من المفيد جداً أن يعرف هذا الوضع كل إنسان قبل أن تستولي على صور أو قبل أن تأخذ منه الوكالة، فوقتها يظل الناس ينادون بمنع الامبراطور وبحرمانه من صور كوكيل، ولسوف تكون قادراً أن تمتلك سبيلاً جيداً ومشرّفاً إذا ما رغبت بمثل ذلك» .

١٧٠ :« لأن العادة في مملكة القدس إن أكثر الناس شرعية في وراثة السلطة، هو الأكثر ظهوراً، ويتسلم هذا الميراث السلطوي بحق حتى يأتي واحد أكثر شرعية منه بوراثة السلطة، ولديك في هذه المدينة السيدة الملكة أليس، أم الملك هنري، التي هي ابنة أختك الألمانية، وهي أكثر الناس شرعية ظهوراً في مملكة القدس بوراثة السلطة، لأنها ابنة الملكة إيزابل، التي هي نفسها الوريث الشرعي للمملكة بحكم كونها ابنة الملك عموري، وصحيح أن الملك كونراد منحدر من الأخت الأكبر، وأنه لوكان حاضراً لاستحق الميراث، لكن حتى يقدم هي الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً( ٢٦٣ )» .

١٧١ : « ولهذا السبب أشير عليك أن تقوم بجمع رجال مملكة القدس، وأن تمثل الملكة أليس أمامهم، وأن تطالب بمملكة القدس بموجب الحق المبين أعلاه، وحسبما بينت كيف يمكن التخلص من الامبراطور والانفصال عنه، وبهذا تعد الترتيبات لوصول الملكة إلى سلطانها، وعندما تطالب بصور، إذا لم تُسلم إليها،أو لم تخضع لأوامرها، أو تدخل في خدمتها، سوف تقوم ـ إن شاء الرب ـ بموجب الاتفاق الذي عقدته مع أهل المدينة، بالاستيلاء على مدينة صور بحق شرعي كامل وبشرف ومجد لذاتك، ولسوف تطرد اللومبارد من سورية» .

١٧٢ : وعندما سمع صاحب بيروت هذا العرض المنطقي، كان مسروراً جداً به، ووافق تماماً عليه، وبعث على الفور وراء مولاي فيليب دي مونتفورت صاحب تورون، وتولى فيليب دي نوفار ـ بناء على أوامر مولاه صاحب بيروت ـ فأعاد على مسامع صاحب تورون حكاية جميع ما قاله من قبل، ووافق( صاحب تورون) على الفور، وأشار بالقيام بهذه المحاولة، وكان واثقاً بها، وقد توفرت لديه أسباب جيدة لذلك، وكانت كافية بالنسبة له، لأنه كان عاقلاً جداً، وصاحب رأي صائب، وقد أخبرا على الفور فيليب دي نوفار بوجوب ذهابه إلى الملكة أليس وإلى السير رالف دي سوا سون Soissons، الذي كان باروناً فرنسياً، وكان زوجها ( ٢٦٤ ).

١٧٣ : وأخبرها فيليب دي نوفار بما رغب به الشخصيتان المذكورين أعلاه، واللذان كانا معاً أبناء خال ألمان للملكة أليس، ولقد ابتهجا لهذا الترتيب كثيراً، وقالالفيليب دي نوفار بأنهما يرغبان في أن يكون هو السكين، وهما اللحم، حتى يستطيع أن يقسّم ويوزع كيفما يشاء، وبحث فيليب في المسألة، وذهب وعاد حتى تمّ إعداد كل شيء وترتيبه، وكانت عقود الاتفاقات المبرمة كثيرة، وكان بين الأشياء التي جرى الاتفاق عليها وأدوا الأيمان حولها، أن يقوم صاحب بيروت وكذلك صاحب تورون بالسيطرة على جميع قلاع المملكة وتجهيزها وشغلها، حتى يأتي الملك كونراد إلى هناك، وكانا قادرين على القيام بهذا، وهو ما ينبغي القيام به، وقام فيليب دي نوفار بالتعاون مع برجاسي اسمه فيليب دي بوديون Bauduyn، الذي كان عاقلاً، ووثيق الصلة مع صاحب تورون، ولقد قاما فيما بينهما برسم خطوط الاتفاقيات ومن ثم كتابتها بشكل سري جداً، حتى أن ما من كلمة واحدة قد عرفت في أرجاء البلاد .

١٧٤ ( ٢٢٦ ): وتدبر صاحب بيروت وصاحب تورون عقد اجتماع لجميع إقطاعيي عكا وأعيانها، في بيت بطريرك القدس( ٢٦٥ )، وكان

الجنـويون والبنـادقة والبيـازنة هنـاك(٢٦٦)، وجميع الـرهبانيـات الدينيـة العـائدة للمـدينـة أيضـاً،وقـدمت الملكـة أليـس زوجهـا مع رالـف دي سـواسـون إلى الاجتماع، وتولى فيلـب دي نـوفـار الذي كـان مستشـارهما دعواهما، وطرح بكل وضوح جميع الأسبـاب والإدعاءات التي سمعتها من قبل، وخـلاصتها : إن الملكة أليس الـوريث الشرعي الأكثر ظهـوراً،وهي التي تستحـق تسلم سلطـان مملكـة القدس، وبنـاء عليـه إنها قـدطلبت ومعها زوجهـا، أن يقدم الحضور الـولاء والخدمات المتعلقة بـالمملكة، ثم إنهما عـرضـا الحفـاظ على الاستخدامـات الجيـدة وعلى العـادات الطيبـة للمملكة .

١٧٥ : واعتزل الذين كـانوا من أهل المملكة جانبـاً، واستدعوا فيليب دي نوفار للتشـاور معهم، وسألوه الرأي والاجتهـاد الممكن اعتماده للقيام برد، وقـد أوضح لهم جميع الأسبـاب التي تقدم وسمعتهـا، وبين كيف أن الملكـة أليس هـي أكثـر الـورثـة الشرعيين ظهـوراً للسلطـة، وكيف أنهم انفصلوا عن الامبراطـور فردريك وتحرروا من التبعية إليه، لأن ابنـه كونراد قـد وصل إلى السـن القـانـونيـة، ونصحهم بشكـل جيـد وأشـار عليهم بوجوب وضـع الملكة أليس في موقع المتسلم لسلطـة مملكة القدس، لأنها أوضح الورثـة الشرعيين حقاً بالمملكة، وأنـه يتوجب عليهم تقـديم الولاء والخدمات إليهـا، بشرط أنه ما أن يقـدم الملك كونراد إلى مملكـة القدس، حتى يبـادروا إلى التخلي عن الارتباط بـالملكة أليـس، ووقتها يحولـون إليه وينقلون كل ماهم مدانون به إليه ومتوجب عليهم نحوه.

١٧٦ : ووافق الحضور جميعاً على رأي فيليب دي نـوفار، والتمسوا منه أن يقوم شخصيـاً بتقديم جوابهم إلى الملكـة أليس، وقد تـولى تنفيذ ذلك على الفور وبكل رغبـة وطواعية، وقـد قيل له بمثـابة إيماءة بأنه طـالما هو نفسه عرض المطـالب والادعاءات، وقدم أيضـاً الجواب، عليه أن يعطي القرار، وإثـر هذا جُعلت الملكة أليـس متحكمة بمملكة القـدس، وكان

أول من قدم لها الولاء صاحب بيروت، وتلاه صاحب تورون، ومن بعدهما جميع الفرسان الآخرين العائدين لعكا، وقد حدث هذا في سنة ١٢٤٢ ( ١٢٤٣ ) .

١٧٧ : وبفضل ما حدث نال فيليب دي نوفار التشريف والثروة، لأن الملكة أليس أعطته مائة دينار إسلامي بمثابة إقطاع، وأمرت بتسديد جميع ديونه التي بلغت ألف مارك فضي، وصار فيليب الوكيل والمعلم في كل شيء( ٢٦٧ )، وتمكن بنجاح أن يجمع الإيجارات حتى أنه استطاع في ثلاثة أيام أن يدفع إلى المرتزقة وللغلايين التي كانت ذاهبة إلى حصار صور، لأن الملكة أليس كانت قد طالبت بصور، ورفض اللومبارد استسلامها، وحشد السير رالف سواسون، زوج الملكة أليس المتقدمة الذكر هو ومولاي صاحب بيروت وصاحب تورون عدداً كبيراً من المرتزقة والغلايين المسلحة، وجلب فيليب دي نوفار سفينة كبيرة لهؤلاء السادة، وكانت مشحونة بشكل جيد بعدد من الرجال المسلحين، وذهب الجنويون والبنادقة إلى هناك، وتوفر هناك عدد كبير من الرجال.

١٧٨ : وانطلق الجيش في أثناء الليل وزحف براً وبحراً، وحاصر صور، ورتب صاحب بيروت الأمور بأن تحدث مع بعض الذين كان قد اتفق معهم على تسليم المدينة، حسبما ذكرنا من قبل، وهؤلاء لم يتمكنوا من المتابعة وفق الطريقة التي تمّ الاتفاق عليها لتسليم المدينة، غير أنهم أخبروه بوجود باب خلفي قرب شارع الجزارين، على الجانب باتجاه البحر، وأنه إذا ما أراد المرور مع جيشه على طرف الشاطىء، وأن تتمكن غلايينه من الاقتراب من سلسلة الميناء، فوقتها سيفتحون الباب الخلفي، ويفكون سلسلة الميناء، وهكذا يمكنه الدخول بأمان، وعندها سيقوم الذين في داخل صور من حزبه بحمل أسلحتهم والثورة على رجال الامبراطور، وعندما سمع صاحب بيروت بهذه الخطة وعد بتنفيذها، غير أنه أصر على أن يقوم الذين بالداخل بالتخلي عنه، وأخبره

البرجاسية بردهم أنهم سوف ينفذون الخطة بدون إحباط .

١٧٩ : وعبأ صاحب بيروت جيشه وصفه على اليابسة وفي البحر، ورتب إشارات بينه شخصياً وبين الذين كانوا على اليابسة، وردد البرجاسية الذين تحدثوا مع صاحب بيروت كل ما حدث على مسامع البرجاسية الآخرين، الذين كانوا متفقين معه، وعندما رأوا أن الفرصة قد تهيأت أعطوا الإشارات، وعندما رؤيت هذه الاشارات أعطى صاحب بيروت نداء إلى السلاح، وأصدر إلى الذين كانوا على ظهور الغلايين الأوامر بالاقلاع، وبدخول الميناء مهما كان الثمن، حتى وإن كلفهم التنفيذ فقدان حياتهم، ثم إنه ركب وزحف هو ورجاله( ٢٦٨ ) إلى المكان الذي كان رفاقه ينتظرونه فيه قرب الباب الخلفي بجوار شارع الجزارين، وكان البحر عالياً، ووقعت الخيول على الصخور، وكان عدد كبير من الناس، لهذا عرضة لخطر الموت، وسقط الذي حمل العلم في البحر، وكان فارساً شاباً، وابناً لفيليب دي نوفار اسمه بالين، ونال اسمه هذا من صاحب بيروت الذي كان عرابه، وقد وصل إلى الأسفل وتمكن من استرداد العلم ومن ثم رفعه خفاقاً في البحر، وحمله بعد هذا حتى الاستيلاء على المدينة .

١٨٠ : ودخل صاحب بيروت ورجاله إلى المدينة عبر الباب الخلفي بكل ثبات،وكادوا أن يتعرضوا للقتل من قبل الذين كانوا في الأبراج مع المذافعين عن المدينة، ودخل الذين كانوا في الغلايين أيضاً بكل شجاعة، وعندما رآهم الرجال الآخرون من الجيش، ممن لم يكن يعرف ماهذا، بادروا بالركض في جميع أجزاء المدينة، وصعد السير رالف دي سواسون على الأسوار بكل شجاعة وإقدام( ٢٦٩ )، ولحق صاحب تورون بصاحب بيروت من خلال الباب الخلفي، وعندما رآهم أهل المدينة وقد دخلوا بمثل هذه الأعداد، انقضوا على اللومبارد وعندما سمع لوثير فيلنغر، واستوعب ما كان يحدث وينجز، سلح نفسه، وغادر البيت

حيث كان، ومضى يركض إلى القلعة، وركض الذين كانوا بالمدينة من الأبوليين، متسابقين بين بعضهم بعضاً إلى القلعة، وقُتل عدد كبير ممن كانوا هناك واعتقلوا، وقد فقدوا كل ما امتلكوه في المدينة .

١٨١ : وهكذا جرى الاستيلاء على مدينة صور، التي كانت من أحصن المدن في العالم، وانطلق الذين استولوا على المدينة، وشغلوا أنفسهم بحصار القلعة، وشددوا عليها الحصار، وضيقوا عليها الخناق، لأنه توفر عدد كبير من الرجال أثناء الحصار، وكذلك أعداد كبيرة جداً من الجنود الرجالة( ٢٧٠ )، وتم صنع عدد من الآلات وأبراج الحجارة، التي تولت قصف القلعة، وأرهقت الذين كانوا في الداخل إلى الحدود القصوى، وتولى السير لوثير فيلنغر الدفاع عن القلعةبنشاط عظيم، ذلك أنه كان فارساً نشيطاً، وقائداً للذين كانوا في الداخل، وكان هؤلاء مجموعة جيدة من المقاتلين قادرين على الدفاع عن القلعة، لذلك لم ينل الذين كانوا في الخارج منهم شيئاً .

١٨٢ ( ٢٢٨ ): وبينما كان الذين خارج القلعة يتولون حصار القلعة، حدث حادث عظيم لهم حسبما ستسمع عنه، وبه أنجزوا مقاصدهم فيما يتعلق بالقلعة المذكورة، فقد منحهم الرب نعمة لاتقدر، وكنا قد تحدثنا من قبل عن رتشارد فيلنغر الذي غادر صور، هو وأتباعه على ظهر سفينة كبيرة، توجهت تريد أبوليا، وقد ساقته الأحوال الجوية إلى سواحل برباري، وجنحت سفينته، وتعرضوا جميعاً إلى خطر الموت غرقاً( ٢٧١ )، وكان هو ومن معه قد حشروا أنفسهم في القارب المرافق للسفينة مع الكثير من مقتنياتهم التي كانوا يحملونها، وكان قبل هذا قد أخذ سفينة من المسلمين، مما يدعوه المسلمون قراقي Karaque( ٢٧٢ )، ووضع فيها واحداً من أصدقائه الجيدين، واسمه بيتردي غريل Grail الذي كان برفقته وكان رجلاً عظيماً ورائعاً في الحرب، وقد ساعده كثيراً في النزول من السفينة إلى القارب، ومن ثم في القراقي، والقيام بجمع شمله

وشمل حاجياته.

١٨٣ : ولم يتجرأوا على ركوب البحرالمفتوح، لأن مركبهم كان صغيراً، مع أنه كان من السهل عليهم الذهاب إلى صقلية، لكن الأحوال الجوية كانت معاكسة لهم كثيراً، لذلك عادوا يسايرون سواحل سورية، فهذا ما أراده الرب، وقضت إرادة ربنا بقيام الأحوال الجوية بدفعهم من شواطىء برباري حتى ميناء صور، ولم يكونوا قد علموا بالأخبار، وقد وصلوا خلال الليل، وهم مثل الذين خيل إليهم أنهم وصلوا بأنفسهم بسلام إلى بيوتهم، حيث أنهم لم يعلموا شيئاً عما حدث في مدينة صور، لأنهم لو علموا بشيء من هذا القبيل لذهبوا إلى طرابلس أو إلى أرمينيا، وقد وصلوا وأنزلوا أشرعتهم مباشرة إلى جانب السفينة الكبيرة التي اشتراها فيليب دي نوفار وجهزها لحمل السادة عندما جاءوا إلى الحصار، وقد سألوا إلى من تعود السفينة، ومن هذا عرفهم الذين كانوا على السفينة وألقوا القبض عليهم واستولوا على بضائعهم، وحملوهم إلى السفينة.

١٨٤ : ووصلت الأخبار إلى صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر قد وصل إلى الميناء، وتولى هو إخبار صاحب تورون، وذهب هذان الاثنان إلى رالف دي سواسون، وقامت ضجة كبيرة في جميع أرجاء المدينة، وركض جميع الناس إلى الميناء، وأقلع كثيرون في بوارج ومراكب أخرى واتجهوا نحو« القراقي» المذكورة، وتوقف السير رالف دي سواسون وصاحب بيروت عند السلسلة وبعثا صاحب تورون وفيليب دي نوفار إلى السفينة، وقام هذان باعتقال رتشارد فيلنغر وجماعته كلها وكل ما كان معه من بضائع وثروات أخرى، وذلك بدون أية مقاومة جاءت من قبله أو من قبل أي واحد من رجاله، لأنهم لم يكن لديهم قوة، وحملوهم إلى اليابسة، حيث بعثوهم إلى مسكن السير رالف دي سواسون، وضربهم الأطفال والنساء بالحجارة حتى كادوا أن يقتلوهم هم والذين تولوا

قيادتهم .

١٨٥ : وطلب صاحب بيروت تمكينه منهم ليضعهم في السجن،بحكم أنهم أعداءه الألداء الذين دمروا قلعته في بيروت، وسببوا له أذى عظيماً، ولم يرغب السير رالف دي سواسون بتسليمهم له، وقال فيليب دي نوفار: «باسم الرب يامولاي، امنحهم له،لأن فيلنغر سوف يخاف خوفاً عظيماً منه، فيقوم الآن بتسليمك القلعة» وبناء على ذلك أعطاهم له، وبعثهم إليه، وصنع صاحب بيروت سلاسل من الحديد مثل التي كان الامبراطور قد صنعها له عندما اتخذه سجيناً عنده ورهينة في ليماسول، وكان فيلنغر مرعوباً منه كثيراً ومن جماعته، ثم جاء السير جون دي إيبلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، للمشاركة بحصار قلعة صور، واجتمع القادة للتشاور، ثم أخبروا السير رتشارد فيلنغر وجماعته بأنه يتوجب عليهم ترتيب استسلام القلعة، وإلاّ فإنهم سوف يشنقونه من رقبته أمام الذين كانوا في القلعة .

١٨٦ : وبعث السير رتشارد فيلنغر إلى أخيه السير لوثير الذي كان قائد القلعة، وأخبره بأوضاعه، وما من أحد يعرف فعلاً بالذي أخبره إياه وبالجواب الذي حمله الرسول، لكن الذي عرف تماماً أنه ردّ على الذين كانوا بالخارج أن بإمكانهم أن يفعلوا بأخيه ما يشاءون وكذلك بابن أخيه، ذلك أنه لن يسلم القلعة، مطلقاً، ثم نصبت أعمدة ذات شعب خماسية، ووضعت فوق برج مرتفع كان قريباً من مواجهة القلعة، وجرى اقتياد السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخيه إلى هناك، وكانوا قد غطوا أعينهم بأربطة، ووضعوا حلقات حول رقابهم، وجرى تعليقهم إلى الأعمدة بوساطة حبال ربطت حول أقدامهم، والذي كان يحتاجه الإنسان هو أن يشد نهاية الحبال، ووقتها سوف تنشد الإنشوصات، وتنغلق وساعتها سيبقى كل واحد معلق من رقبته .

١٨٧ : ورآهم السير لوثير في هذه المحنة، فحزن كثيراً وأشفق عليهم،

وصرخ عالياً( ٢٧٣ )، وأرسل فيليب دي نوفار إلى هناك، وجرى الإعداد إلى استسلام تم بوساطته، على أساس تسليمهم للقلعة، واستلام فيليب دي نوفار لها، وقد أقسم لهم، وجعلهم يقسمون بأن يتم تحرير السير رتشارد فيلنغر وإطلاق سراحه مع جميع أصحابه، وأن ترد إليه كل الأشياء التي أخذت منه، وأن يجري استلام الأسرى سالمين جميعاً، ولسوف يتم إعطاء الذين في القلعة الأمان وأن يمكنوا من الذهاب حيث شاءوا مع مقتنياتهم، وأن يصاحبهم رجل من الإيبلينيين، ويقودهم حتى مأمنهم أينما كان هذا المأمن حسب رغبتهم، وجرى الاتفاق في هذا العهد على أن يُدفع إلى المرتزقة كل ما يعود إليهم، وأن يعوضوا عن جميع الخسائر التي تعرضوا إليها في المدينة، عندما هربوا بشكل غير متوقع إلى القلعة .

١٨٨ : وقد مكث فيليب دي نوفار وقتاً طويلاً في القلعة للقيام بإعداد الاتفاقيات حتى أن الذين كانوا في الخارج اعتقدوا أن الذين كانوا في الداخل قد قتلوه، ولذلك تمنع السير بالين بصعوبة بالغة وضبط نفسه عن قتل السير رتشارد فيلنغر وجماعته كلها، وأمر صاحب بيروت بالين ابن فيليب دي نوفار وقال له:«إذا وجدت والدك قد قتل، اقتلهم جميعاً بيدك» .

١٨٩ : وعندما أكمل فيليب دي نوفار هذه الاتفاقيات، وعقد هذه العهود مع الذين كانوا في القلعة، خرج من القلعة، وروى أخبار جميع ما صنعه، وتمت الموافقة على ذلك كله، وجرى تنفيذه بسرور عظيم، وإرادة طيبة، ورغبة كبيرة، وزيد على ذلك عطاءات كثيرة لم يكن فيليب قد أتى على ذكرها في الميثاق، وخرج الجميع في الصباح التالي من القلعة، وأعطى فيليب دي نوفار القلعة إلى صاحب بيروت وإلى صاحب تورون الذي كان عليه القيام بحراسة الحصن، وذلك وفقاً لما جاء في المواثيق التي عقدت في عكا بين الملكة أليس وبينهما، وقاد السير جون دي إيبلين

اللومبارد الذيـن كانوا هناك إلى المكان الذي رغبوا بالـذهاب إليه، وهكذا اجتـث عش شر اللـومبـارد وأطيـح به ورمـي جـانبـاً، وهكذا لم يعـودوا يمتلكـون أيـة قـوة في سـوريـة أو في قبرص، وعلى هـذه الصـورة جـرى الاستيلاء على مدينة صور وعلى القلعة في سنة ١٢٤٢ ( ١٢٤٣ )( ٢٧٤ ) .

( وعاش ملـك قبرص والبيت الإيبلينـي بعد هذا مـدة طويلـة بمجد عظيم، وحكمـوا مملكتي قبرص والقدس، واحتفظـوا بهما بأحـوال جيدة، مرفوقة بشكر جميع الناس، ذلـك أنهم عرفوا كيف يحافظوا على حقوق كل واحد بوساطة إخلاصهم، وحسن أخلاقهم وكرمهم نحو الجميع، لكن بما أن الحكاية طـويلة جداً لأن يحاول الانسان أن يحكي كـل الذي فعلوه في حياتهم، سـوف أسكت مـؤكداً لكم أنـه لايوجـد في العالم المسيحـي بيتاً أكثر شجاعة من البيت الإيبليني)( ٢٧٥ ) .